رواية

الذين أتعبتهم الحقيقة

تأليف

شراك يوسف

نوفمبر 2026



إهداء

الحمد لله الرحمن الرحيم و الصلاة و السلام على النبي الأمين سيدنا و نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين و أله الطاهرين و صحبه الطيبين أهدي هذه الرواية.

إلى الذين لم تكن الحياة قاسية عليهم بقدر ما كانت الحقيقة.

إلى الذين اكتشفوا متأخرين أن بعض الوجوه أقنعة وأن بعض الوعود حكايات جميلة لا أكثر وأن الطيبة وحدها لا تكفي لحماية أصحابها من الخذلان.

إلى الذين خسروا أشياء كثيرة حين قرروا أن يروا الأمور كما هي لا كما تمنوا أن تكون.

إلى الذين أتعبتهم الحقيقة لكنهم لم يتعلموا الكذب.

مقدمة الرواية

ليس أصعب على الإنسان من أن يكتشف أن الحقيقة التي ظل يبحث عنها طويلاً كانت تسكن أمام عينيه لكنه اختار ألا يراها.

نحن لا نتعب دائماً من قسوة الحياة بل من المسافة الطويلة التي نقطعها بين ما نعتقده وما نكتشفه بين الصورة التي رسمناها للآخرين والوجوه التي تظهر حين تسقط الأقنعة.

ثمة لحظات لا تغيّر مجرى حياتنا فحسب بل تعيد تشكيل نظرتنا إلى كل ما عشناه من قبل فنراجع مواقفنا ونشك في قناعاتنا ونعيد قراءة أشخاص ظننا أننا فهمناهم جيداً.

هذه الرواية ليست حكاية عن الحقيقة وحدها بل عن ثمن معرفتها وعن أولئك الذين دفعوا من أعمارهم ومشاعرهم ثمناً لم يكونوا يتوقعونه.

فليس كل من عرف الحقيقة نجا وليس كل من عاش في الوهم كان سعيداً.

الفصل الأول: حين بدأ كل شيء يتغير

لم يكن يدرك أن أكثر ما سيؤلمه في حياته لن يكون ما فقده بل ما سيكتشفه بعد فوات الأوان.

كان يظن أن السنوات تمنح الإنسان الحكمة وأن التجارب مهما قست تترك في النفس شيئاً من النضج لكنه لم يكن يعلم أن بعض التجارب لا تعلمنا كيف نعيش بل تجعلنا نتساءل إن كنا قد عشنا حقاً كما ينبغي.

في الخامسة والثلاثين من عمره وجد نفسه أمام أسئلة لم تخطر بباله حين كان أصغر سناً أسئلة عن الصداقة والحب والوفاء والنجاح وعن تلك المبادئ التي طالما دافع عنها حتى أصبح الدفاع عنها جزءاً من صورته أمام الآخرين.

لم يكن رجلاً كثير الكلام لكنه كان كثير التفكير يراقب التفاصيل الصغيرة ويمنح الكلمات أكثر من معناها ويعتقد أن وراء كل تصرف سبباً يستحق الفهم قبل إصدار الأحكام.

كان يؤمن أن الناس يخطئون وأن الخطأ لا يجعلهم بالضرورة سيئين وأن التسامح ليس ضعفاً بل قدرة لا يمتلكها الجميع.

غير أن المشكلة لم تكن في تسامحه وإنما في أنه كان يمنح الفرص ذاتها لأشخاص لم يتعلموا من فرصهم السابقة.

في إحدى الأمسيات جلس إلى نافذته يتأمل حركة المارة وكان المطر خفيفاً والمدينة تبدو وكأنها تغسل شيئاً من تعبها أمسك هاتفه وتصفح محادثات قديمة فتوقف عند رسالة كان قد أرسلها قبل سنوات

لا تقلق أنا أثق بك.

قرأها أكثر من مرة ثم وضع الهاتف جانباً.

كم تبدو بعض الكلمات بريئة حين نكتبها وكم تصبح موجعة حين نكتشف أننا كنا نكتبها للشخص الخطأ!

لم يكن غاضباً من أحد بعينه فقد تجاوز مرحلة البحث عن المذنبين لكنه بدأ يفهم أن الإنسان قد يكون شريكاً في خيبته حين يتجاهل الإشارات الواضحة ويختار أن يصدق ما يتمناه لا ما يراه.

رن الهاتف.

كان اتصالاً من صديق قديم انقطعت بينهما الأخبار منذ مدة.

تردد قليلاً قبل أن يجيب.

أين اختفيت يا رجل؟ لقد تغيرت كثيراً!

ابتسم وقال ربما لم أتغير ربما فقط توقفت عن تجاهل الأشياء التي كنت أراها منذ البداية.

ساد الصمت للحظات.

ثم جاءه السؤال الذي لم يكن مستعداً للإجابة عنه

وماذا اكتشفت؟

نظر إلى المطر خلف النافذة وقال بصوت هادئ

اكتشفت أن الحقيقة لا تأتي دائماً لتريحنا أحياناً تأتي فقط لتضع حداً للأوهام التي كنا نسميها حياة.

أنهى المكالمة وعاد إلى وحدته.

لم يكن يعلم أن هذا الاتصال البسيط سيكون بداية سلسلة من الأحداث التي ستعيد فتح ملفات ظن أنها أُغلقت إلى الأبد.

ففي اليوم التالي ستعود إلى حياته شخصية كان يعتقد أنها أصبحت جزءاً من الماضي وستحمل معها حقيقة ظلّت غائبة لسنوات حقيقة ستجعله يعيد النظر في كل شيء.

ولم يكن يدري أن بعض الأبواب حين تُفتح لا يعود ممكناً إغلاقها بالطريقة نفسها.

الفصل الثاني: الذين نمنحهم أكثر مما يستحقون

هناك أشخاص يدخلون حياتنا دون ضجيج ثم يصبحون جزءاً من تفاصيلها اليومية فنعتاد وجودهم حتى ننسى أن العلاقات مهما بدت متينة تحتاج إلى الصدق أكثر مما تحتاج إلى طول الزمن.

كان يعتقد أن الصداقة موقف لا مصلحة وأن المحبة لا تُقاس بعدد الرسائل ولا بطول المكالمات بل بما يفعله الإنسان حين لا يكون مطالباً بفعل شيء.

لكن السنوات علمته أن بعض العلاقات تشبه المظلات ترافقك حين تكون السماء صافية ثم تختفي حين يبدأ المطر.

ولم تكن المشكلة أنه لم يعرف حقيقة الناس بل أنه كان كلما اكتشف جانباً سيئاً في أحدهم بحث له عن عذر جديد.

كان يقول لنفسه ربما يمر بظروف صعبة ربما لم يقصد ربما أساء التعبير وربما أنا من بالغ في فهم الموقف.

حتى أدرك ذات يوم أن كثرة الأعذار قد تتحول إلى ظلم للنفس وللمرة الأولى قرر ألا يبحث عن تفسير لكل خذلان فبعض التصرفات لا تحتاج إلى تفسير بل تحتاج إلى موقف.

الفصل الثالث: عودة الماضي

لم يكن الماضي ينتهي دائماً حين نغلق أبوابه فثمة أشياء تظل معلقة في الذاكرة تنتظر لحظة مناسبة لتعود لا لتذكرنا بما حدث فحسب بل لتكشف لنا ما لم نكن نعرفه.

في صباح اليوم التالي استيقظ على صوت هاتفه كانت الساعة تشير إلى التاسعة والمدينة بدأت تستعيد ضجيجها المعتاد مد يده نحو الهاتف فوجد رسالة من رقم لم يعد مسجلاً لديه.

قرأها مرة ثم أعاد قراءتها.

مرحباً أعلم أن رسالتي قد تكون مفاجئة لكن هناك أموراً تأخرت كثيراً في إخبارك بها أرجو أن تمنحني فرصة للحديث معك.

لم تكن الرسالة طويلة لكنها كانت كافية لتعيد إلى ذاكرته سنوات كاملة.

عرف صاحبتها دون أن يحتاج إلى رؤية الاسم.

كانت نوميديا.

امرأة عبرت حياته في مرحلة كان يعتقد فيها أن الصدق قادر على حماية المشاعر من الانكسار ولم تكن علاقتهما عابرة ولم تكن مجرد حكاية إعجاب انتهت باختلاف وجهات النظر كانت بينهما أحاديث طويلة وأحلام صغيرة ووعود لم تُكتب على الورق لكنها استقرت في الذاكرة كأنها عهود لا تقبل النسيان.

ثم اختفت.

لم يحدث بينهما شجار كبير ولم يتبادلا كلمات جارحة ولم تكن هناك نهاية واضحة فقط بدأت المسافات تتسع والردود تتأخر والأسئلة تبقى معلقة حتى صار الصمت هو اللغة الوحيدة بينهما.

كان أكثر ما أوجعه آنذاك أنه لم يعرف السبب.

حاول الاتصال بها مرات ثم توقف كتب رسائل كثيرة لم يرسلها وطرح على نفسه أسئلة لم يجد لها إجابة.

هل أخطأ في حقها؟

هل تغيرت مشاعرها؟

هل دخل شخص آخر حياتها؟

أم أن بعض الناس يرحلون ببساطة لأنهم لم يعودوا يرغبون في البقاء؟

مرت سنوات وتعلم خلالها ألا ينتظر تفسيراً من أحد لكنه لم يتعلم كيف يمنع الذاكرة من استعادة ما تريد.

وها هي الآن تعود برسالة قصيرة.

جلس على طرف السرير وأخذ يفكر قبل أن يكتب

مرحباً نوميديا أتمنى أن تكوني بخير ما الأمر الذي تريدين الحديث عنه؟

لم تمر دقائق حتى جاء الرد

هناك حقيقة لم أخبرك بها يوم افترقنا وأعتقد أنك تستحق أن تعرفها.

توقف عند كلمة الحقيقة.

كم مرة سمع هذه الكلمة من أشخاص كانوا يخفون عنه نصف الحكاية؟

كتب أحياناً لا تعود الحقيقة ذات فائدة بعد أن تفقد الأشياء قيمتها.

أجابته أعرف لكنني لم أعد أستطيع الاحتفاظ بهذا السر.

وضع الهاتف جانباً.

لم يكن يخشى سماع الحقيقة فقد أصبح يدرك أن الإنسان لا يستطيع أن يبني سلامه الداخلي على رواية ناقصة لكنه كان يخشى أن تكون السنوات التي قضاها في محاولة النسيان قد ذهبت سدى.

في المساء جلس في المقهى الذي اعتاد زيارته قديماً اختار طاولة قرب النافذة وطلب قهوته المعتادة.

كانت نوميديا قد اقترحت اللقاء في المكان نفسه الذي جمعها للمرة الأخيرة و وصلت بعد الموعد بعشر دقائق.

بدت مختلفة بعض الشيء لم تعد تلك المرأة التي عرفها لكن في عينيها شيئاً من الملامح القديمة.

جلست أمامه وبعد تبادل التحية ساد صمت ثقيل.

قالت أخيراً لم أتوقع أن تقبل رؤيتي.

أجاب بهدوء لم أعد أرى فائدة في الهروب من الأسئلة القديمة.

خفضت عينيها ثم قالت هل كرهتني؟

ابتسم ابتسامة خفيفة

الكراهية تحتاج إلى طاقة وأنا تعبت حتى من محاولة فهم ما حدث.

تنهدت وقالت أنت لا تعرف كل شيء.

وهذا تحديداً ما جئت لأعرفه.

ظلت صامتة للحظات ثم بدأت تتحدث

يوم افترقنا لم يكن الأمر كما اعتقدت لم أكن قد فقدت مشاعري تجاهك ولم يكن هناك شخص آخر كما ربما تخيلت لقد تدخل أشخاص في حياتنا وأقنعوني بأمور كثيرة عنك أخبروني أنك لا تأخذ علاقتنا بالجدية التي كنت أتصورها وأنك تتحدث عني بطريقة لم أكن أقبلها.

نظر إليها طويلاً.

وهل سألتِني ؟

لم تجب.

أعاد السؤال

هل سألتِني مرة واحدة إن كان ما قيل صحيحاً؟

قالت بصوت منخفض لا.

ابتعد قليلاً عن الطاولة ثم قال إذاً لم تخسريني بسبب ما قيل عني بل لأنك صدقتِ الآخرين قبل أن تسمعي مني.

اغرورقت عيناها بالدموع.

كنت صغيرة ولم أكن أعرف كيف أتصرف.

أجابها ربما كنتِ صغيرة لكنني أيضاً كنت أعيش تلك التجربة للمرة الأولى كنت أستحق منك سؤالاً واحداً لا حكماً نهائياً.

سكتت ثم أخرجت من حقيبتها ظرفاً صغيراً ووضعته أمامه.

هناك شيء آخر هذا ما كنت أريد أن أعطيك إياه.

نظر إلى الظرف باستغراب.

كان مغلقاً وعلى واجهته اسمه بخط تعرفه ذاكرته جيداً.

مد يده نحوه لكنه لم يفتحه.

سألها ما هذا؟

أجابته رسالة كتبتها لك قبل سنوات لكنني لم أمتلك الشجاعة لإرسالها.

نظر إلى الظرف ثم إليها.

وفي تلك اللحظة أدرك أن اللقاء لم يكن نهاية حكاية قديمة كما ظن بل بداية حكاية أخرى لم يكن مستعداً لها.

عاد إلى منزله متأخراً.

خلع معطفه و وضع الظرف فوق مكتبه ثم جلس أمامه طويلاً.

كان يستطيع فتحه وكان يستطيع تمزيقه لكنه اختار أن يتركه حتى الصباح.

فقد تعلم أخيراً أن ليس كل ما يصل متأخراً يستحق أن نفتح له أبوابنا.

ومع ذلك بقي سؤال واحد يطارده

إذا كانت نوميديا قد صدقت كذبة ذات يوم فمن الذي صنع تلك الكذبة؟ ولماذا كان حريصاً إلى هذا الحد على أن يفترقا؟

لم يكن يعلم أن الإجابة ستقوده إلى شخص آخر شخص لم يكن يتوقع أن يكون له دور في أكثر فصول حياته إيلاماً.

الفصل الرابع: صديق أم شاهد على الخذلان؟

في اليوم التالي قرر أن يلتقي بصديقه القديم كمال.

كان كمال من أقرب الأشخاص إليه ومن القلائل الذين عرفوا تفاصيل علاقته بنوميديا بل إنه كان الشخص الذي لجأ إليه يوم بدأت الأمور تتغير بينهما.

لم يخطر بباله يوماً أن يشك فيه.

فالصداقة في نظره لم تكن مجرد معرفة طويلة بل مساحة من الأمان لا يحتاج فيها الإنسان إلى الدفاع عن نفسه.

اتصل به.

كمال هل أنت متفرغ هذا المساء؟

من أجلك دائماً ما الأمر؟

أريد أن أراك هناك موضوع قديم أحتاج إلى الحديث معك بشأنه.

ضحك كمال قائلاً

يبدو أن الماضي قرر أن يزورنا جميعاً!

لم يعلق.

كان يعرف أن بعض الضحكات تخفي وراءها ما لا تقوله الكلمات.

وفي المساء التقيا.

تحدثا عن العمل والحياة والأصدقاء المشتركين حتى وجد فرصة مناسبة ليسأله

هل تذكر ما حدث بيني وبين نوميديا ؟

تغيرت ملامح كمال للحظة ثم استعاد ابتسامته

بالطبع وكيف أنسى ؟

هل كنت تعرف سبب ابتعادها ؟

أجاب بسرعة لقد تحدثنا في ذلك الوقت وأعتقد أن الأمور كانت واضحة.

نظر إليه يوسف وقال غريب لأنها أخبرتني أمس بأمور مختلفة تماماً.

سكت كمال.

كانت تلك أول مرة يشعر فيها يوسف أن صديقه لا يبحث عن إجابة بل عن مخرج.

قال كمال وما الذي أخبرتك به ؟

أجابه يوسف أخبرتني أن أشخاصاً نقلوا إليها كلاماً عني، وأنها صدقتهم دون أن تواجهني.

حرك كمال فنجان القهوة بين يديه ثم قال الناس تتغير يا يوسف وربما كان من الأفضل أن تنسى الموضوع.

ابتسم يوسف لكنه لم يرد فلقد كان يعرف تلك العبارة جيداً.

"انسَ الموضوع"

كم من حقيقة دُفنت تحت هذه الجملة؟

وعندما افترقا ولم يكن يوسف قد حصل على اعتراف لكنه خرج بإحساس لم يعرفه من قبل.

لقد بدأ يشك في الشخص الذي كان يطمئن إليه كلما خذلته الحياة.

وفي طريق عودته رن هاتفه برسالة من رقم مجهول

إذا كنت تريد معرفة من فرّق بينك وبين نوميديا فلا تبحث بعيداً اسأل صديقك الذي التقيته اليوم.

توقف عن المشي و قرأ الرسالة مرة أخرى.

ثم رفع عينيه نحو الطريق الممتد أمامه.

للمرة الأولى لم يعد يخشى الحقيقة لأنها قد تؤلمه بل لأنه بدأ يدرك أن أقرب الناس إليه ربما كانوا يعرفون عنها أكثر مما يعرف هو.

وهكذا لم يعد السؤال لماذا رحلت نوميديا؟ بل أصبح من كان يريد لها أن ترحل؟

الفصل الخامس: الوجه الآخر للصداقة

لم ينم يوسف جيداً تلك الليلة.

كانت الرسالة المجهولة تتكرر في ذهنه كأنها جملة كُتبت خصيصاً لتسلبه ما تبقى له من طمأنينة.

اسأل صديقك الذي التقيته اليوم.

لم يكن يريد تصديق ما توحي به الرسالة فليس من السهل أن يتحول شخص اعتدنا أن نضعه في خانة الأمان إلى احتمال للخيانة.

كان كمال أكثر من صديق بالنسبة إليه فقد جمعتهما سنوات طويلة ومواقف كثيرة وأسرار لم يكن يوسف يتخيل أن يشاركها مع غيره.

ومع ذلك بدأ يتذكر بعض التفاصيل التي لم يمنحها اهتماماً في وقتها.

تذكر كيف كان كمال يبالغ في الحديث عن عيوب نوميديا وكيف كان يحاول إقناعه بأن بعض العلاقات لا تستحق كل ذلك الاهتمام وكيف كان يردد دائماً أن الإنسان لا ينبغي أن يثق بأحد ثقة كاملة.

في ذلك الوقت اعتبر نصائحه دليلاً على حرصه أما الآن فقد بدأت الكلمات القديمة تكتسب معاني مختلفة.

في العاشرة صباحاً اتصل به كمال.

صباح الخير يا يوسف كيف حالك؟

بخير وأنت؟

الحمد لله فكرت في حديثنا أمس وأريد أن أوضح لك شيئاً.

اعتدل يوسف في جلسته.

تفضل.

أظن أن هناك أموراً قديمة لا ينبغي أن نعيد فتحها فنحن كبرنا وكل واحد منا أصبح له طريقه فما الفائدة من البحث في الماضي؟

ابتسم يوسف وقال

الغريب أنك تريد إغلاق موضوع لم أبدأ بعد في فتحه.

صمت كمال قليلاً.

لا أقصد شيئاً لكنني أعرفك أنت تفكر كثيراً وقد تتعب نفسك بأمور انتهت منذ سنوات.

ربم لكن هناك فرقاً بين التفكير في الماضي والعيش داخله أنا لا أبحث عمن ألومه أبحث فقط عما حدث.

أنهى المكالمة بعد دقائق.

كان يشعر أن شيئاً ما يتشكل أمامه لكنه لم يكن يريد إصدار حكم قبل امتلاك الدليل.

فقد كان يؤمن أن الظلم لا يصبح عدلاً لمجرد أن صاحبه مجروح.

بعد الظهر وصلته رسالة جديدة من الرقم المجهول

لدي ما يثبت أن كمال لم يكن مجرد ناقل للكلام إن كنت مستعداً لمعرفة الحقيقة قابلني غداً في محطة القطار القديمة الساعة الخامسة.

قرأ الرسالة طويلاً.

ثم كتب من أنت؟

لم يتلق جواباً.

وفي المساء فتح الظرف الذي تركته نوميديا لديه.

كان داخله ورقة مطوية بعناية وعلى رأسها تاريخ يعود إلى تسع سنوات مضت.

بدأ يقرأ يوسف لا أعرف إن كنت ستقرأ هذه الرسالة يوماً ولا أعرف إن كنت سأمتلك الشجاعة لإرسالها إليك أكتب إليك لأنني تعبت من الصمت ولأن هناك أشياء لم أستطع قولها حين كان ينبغي أن أقولها فلقد أخطأت حين سمحت للآخرين بأن يرسموا صوراً عنك في ذهني وأخطأت أكثر حين جعلت من ظنوني حقيقة لا تقبل النقاش لكنني أريدك أن تعرف أنني لم أكن وحدي في ذلك القرار فقد كان هناك من يعرف تفاصيل علاقتنا ومن كان قريباً منا أكثر مما ينبغي ومن استغل ثقتنا به ليزرع بيننا الشك ولا أعرف إن كنت ستسامحني ولا أطلب منك ذلك فكل ما أريده أن تعرف أنني لم أرحل لأنك لم تكن كافياً بل لأنني لم أكن قوية بما يكفي لأواجه الحقيقة بنفسي.

توقف يوسف عن القراءة.

أعاد الورقة إلى الطاولة ثم مرر يده على وجهه.

لم يكن في الرسالة اسم كمال لكنها كانت كافية لتجعل الشك أكثر ثقلاً.

قلب الورقة فوجد في أسفلها جملة صغيرة

احتفظت بصورة من المحادثة التي غيرت كل شيء ربما يأتي يوم تحتاج فيه إلى رؤيتها.

نهض من مكانه.

لقد أصبح لديه سبب حقيقي للذهاب إلى محطة القطار.

الفصل السادس: موعد مع الحقيقة

كانت محطة القطار القديمة شبه خالية حين وصل يوسف.

اختار مقعداً بعيداً عن المدخل ووضع هاتفه أمامه وأخذ يراقب الوجوه العابرة.

كان المساء بارداً والريح تحرك بعض الأوراق المتناثرة على الرصيف.

مرت خمس دقائق ثم عشر دون أن يظهر أحد.

عند الخامسة والنصف اقترب منه رجل في أواخر الثلاثينيات يحمل حقيبة سوداء صغيرة.

وقف أمامه وسأله

يوسف؟

رفع رأسه.

نعم من أنت؟

جلس الرجل دون استئذان ثم قال

اسمي مصطفى كنت أعرف كمال منذ سنوات وكنت حاضراً في بعض الأحداث التي لم تعرف عنها شيئاً.

لم يتعجل يوسف في الرد.

قال مصطفى أعرف أن الأمر قد يبدو غريباً لكنني لم أكن أريد التدخل في حياتك غير أنني رأيت ما حدث وظللت أشعر أن السكوت لم يكن موقفاً صحيحاً.

وما الذي تعرفه؟

فتح مصطفى حقيبته وأخرج ظرفاً يحتوي على عدة أوراق.

في تلك الفترة كان كمال يتحدث كثيراً عن علاقتك بنوميديا لم يكن الأمر مجرد نصائح لصديق لقد كان يتدخل في تفاصيل لم يكن من المفترض أن يتدخل فيها.

نظر يوسف إلى الأوراق.

هل لديك دليل؟

أخرج مصطفى صورة مطبوعة لمحادثة قديمة.

قرأ يوسف الكلمات ببطء.

كانت محادثة بين كمال وشخص آخر، وفيها حديث عن ضرورة إبعاد نوميديا عنه وعن طريقة جعلها تشك في صدقه.

لم يكن يوسف يعرف الطرف الآخر لكن اسم كمال كان واضحاً.

شعر بأن المكان يضيق من حوله.

رفع عينيه نحو مصطفى وسأله لماذا فعل ذلك؟

أجاب مصطفى لا أستطيع أن أجزم بكل دوافعه لكنني أعرف أنه كان يغار منك وأنه لم يكن يتقبل نجاحك في علاقاتك ولا ثقة الناس بك وربما كانت لديه أسباب أخرى.

ظل يوسف ينظر إلى الورقة وكان يستطيع الآن أن يجد شخصاً يلومه وأن يوجه إليه كل ما تراكم في داخله من غضب لكنه لم يفعل.

قال بعد صمت طويل كنت أظن أنني خسرت امرأة بسبب اختلاف بيننا فإذا بي أكتشف أنني كنت محاطاً بأشخاص لم يكونوا كما اعتقدت.

ثم أضاف لكن أخبرني بشيء يا مصطفى هل كانت نوميديا تعرف أن كمال هو من فعل ذلك؟

تردد مصطفى قبل أن يجيب

لا أعرف لكنني أظن أن هناك أمراً آخر لم يخبرك به أحد.

ما هو؟

نظر مصطفى إلى الساعة ثم أعاد الأوراق إلى الظرف.

كمال لم يكن وحده في تلك القصة.

نهض من مكانه.

هناك شخص آخر أقرب إليك مما تتصور.

وقبل أن يتمكن يوسف من سؤاله ابتعد مصطفى بين المسافرين.

بقي يوسف جالساً والظرف في يده.

لم تعد القضية مجرد خيانة صديق لقد أصبحت سلسلة من الأسرار وكلما اقترب من حلقة اكتشف أن وراءها حلقة أخرى.

في طريق عودته اتصل بنوميديا.

أجابت بعد الرنة الثانية نعم يا يوسف؟

أريد أن أسألك سؤالاً وأرجو أن تجيبيني بصدق.

تفضل.

هل كنت تعرفين أن كمال كان يتدخل في علاقتنا؟

ساد الصمت طويلاً.

ثم قالت بصوت مرتجف يوسف... هناك شيء لم أخبرك به.

توقف عن السير.

ما هو؟

قالت في ذلك الوقت لم يكن كمال هو الشخص الوحيد الذي نقل إليّ كلاماً عنك كان هناك شخص من عائلتك أيضاً.

لم يستطع الرد ثم سألها من؟

جاءه الجواب بطيئاً لكنه كان واضحاً أخوك الأكبر.

أغلق يوسف عينيه.

وفي تلك اللحظة لم يعد يعرف أيهما أشد إيلاماً أن يخدعك غريب أم أن تكتشف أن من كنت تعتبره سنداً لك كان جزءاً من الحكاية.

الفصل السابع: حين يأتي الخذلان من البيت

لم يكن يوسف يخشى أن يخذله الغرباء فقد تعلّم مع مرور الوقت أن المسافات بين الناس لا تمنحهم بالضرورة صفاء النوايا وأن كثرة اللقاءات لا تعني بالضرورة صدق العلاقات.

لكنه لم يتصور يوماً أن يجد نفسه مضطراً إلى إعادة النظر في الأشخاص الذين تقاسم معهم طفولته وذاكرته ودفء البيت الذي كان يعتقد أنه أكثر الأماكن أماناً.

كان أخوه الأكبر بالنسبة إليه أكثر من فرد في العائلة كان مرجعاً يعود إليه حين تختلط عليه الأمور وصوتاً يثق بحكمته حين تعجزه الحيرة وشخصاً لم يكن يتوقع أن يكون طرفاً في حكاية انتهت بواحدة من أكبر خيباته.

عاد إلى البيت في ساعة متأخرة.

وجد أخاه جالساً في غرفة الجلوس يتصفح هاتفه.

رفع رأسه وقال تأخرت اليوم أين كنت؟

خلع يوسف معطفه ووضع مفاتيحه فوق الطاولة.

كنت أحاول أن أفهم بعض الأمور القديمة.

ابتسم أخوه قائلاًما زلت تعيش في الماضي؟ ألم تتعلم أن الحياة لا تنتظر أحداً؟

جلس يوسف مقابله ونظر إليه طويلاً.

وهل تعتقد أن كل ما مضى ينبغي أن ننساه؟

ليس كل شيء يستحق أن نتوقف عنده.

قال يوسف بهدوء صحيح لكن هناك أشياء لا نستطيع تجاوزها قبل أن نفهمها.

ساد الصمت.

ثم أضاف هل تتذكر نوميديا؟

تغيرت ملامح أخيه قليلاً.

وما الذي أعاد سيرتها الآن؟

اكتشفت أن هناك من كان يتحدث إليها عني وينقل لها أموراً لم أقلها ولم أفعلها.

حاول أخوه أن يبدو غير مهتم

الناس تتحدث وهذه أمور عادية.

وهل كنت واحداً من هؤلاء الناس؟

لم يجب.

كان الصمت هذه المرة مختلفاً لم يكن صمت شخص يبحث عن الكلمات بل صمت شخص يحاول أن يقرر أي الكلمات أقل ضرراً.

كرر يوسف سؤاله هل تحدثت معها عني؟

تنهد أخوه وقال

نعم تحدثت معها لكنني لم أقصد إيذاءك.

شعر يوسف بشيء ثقيل يستقر في صدره.

وماذا قلت لها؟

قلت لها بعض الأمور التي كنت أعتقد أنها صحيحة.

وهل سألتني عنها قبل أن تقولها؟

كنت أريد مصلحتك.

ابتسم يوسف ابتسامة حزينة.

هذه العبارة تحديداً أصبحت تخيفني كلما أراد أحدهم أن يبرر تدخله في حياتي قال إنه يريد مصلحتي.

اقترب أخوه منه وقال اسمع يا يوسف لا تجعل قصة قديمة تفسد علاقتنا أنت أخي ولن يتغير ذلك.

أجابه وأنا لم آتِ لأفسد علاقتنا جئت لأعرف لماذا كان من السهل عليك أن تحكم عليّ دون أن تسألني.

خفض أخوه رأسه.

وبعد لحظات قال كنت أرى أنك متعلق بها أكثر مما ينبغي وكنت أخشى أن تتأثر حياتك بسبب تلك العلاقة وتحدثت معها وقلت لها إنك لست مستعداً للارتباط وإنك لا تفكر بالطريقة التي تتصورها هي.

وهل كان ذلك صحيحاً؟

لم أكن متأكداً.

نهض يوسف من مكانه.

لم يكن ينتظر اعتذاراً مثالياً ولا تفسيراً يعيد السنوات إلى الوراء كان ينتظر فقط أن يسمع كلمة واحدة تعترف بأنه تعرض للظلم.

لكنه لم يسمعها.

قال قبل أن يغادر الغرفة

المشكلة ليست أنك أخطأت في تقديري بل أنك اعتبرت نفسك مخولاً بأن تقرر عني ثم تركتني أعيش سنوات وأنا أبحث عن خطأ لم أرتكبه.

دخل غرفته وأغلق الباب.

جلس على سريره وأخذ يتأمل السقف.

كان قد اكتشف اليوم أن بعض الخيبات لا تأتي من أشخاص أسأنا اختيارهم بل من أشخاص لم يكن لدينا خيار في أن نعرفهم.

الفصل الثامن: الاعتذار الذي لا يعيد شيئاً

في الأيام التالية أصبح يوسف أقل كلاماً وأكثر عزلة لم يتغير تعامله مع عائلته ولم يفتعل خلافاً مع أحد لكنه لم يعد يمنح التفاصيل الصغيرة الثقة ذاتها.

كان يحاول أن يفهم كيف يمكن للإنسان أن يحب شخصاً ويؤذيه في الوقت نفسه وأن يدّعي الحرص على مصلحته بينما يسلبه حقه في اتخاذ قراراته.

وفي مساء يوم الخميس طرق أخوه باب غرفته.

هل يمكنني الدخول؟

تفضل.

جلس الأخ الأكبر على الكرسي المقابل و ظل صامتاً قليلاً ثم قال

فكرت في كلامك كثيراً.

لم يرد يوسف.

تابع ربما أخطأت حين تدخلت في حياتك فكنت أظن أنني أحميك من تجربة قد تؤذيك لكنني لم أفكر في العواقب.

قال يوسف وهل فكرت يوماً في أن تسألني عما أريده أنا ؟

لا.

وهل فكرت في أن لي الحق في أن أخطئ وأتعلم بنفسي ؟

لم يجب الأخ مباشرة.

ثم قال أعتذر منك.

كانت الكلمة بسيطة لكنها جاءت متأخرة.

نظر يوسف إليه وقال أقبل اعتذارك لكن لا تطلب مني أن أعود إلى نظرتي القديمة للأمور فبعض الأشياء حين تنكسر لا تعود كما كانت حتى لو أصلحناها.

قال أخوه أفهم ذلك ثم غادر الغرفة.

بقي يوسف وحده كان يشعر بشيء من الارتياح لكنه لم يكن ارتياح المنتصر بل راحة شخص توقف أخيراً عن البحث عن تفسير لشيء أصبح واضحاً.

ومع ذلك لم يكن كل شيء قد انتهى.

فقد وصلته في تلك الليلة رسالة من نوميديا

يوسف هناك أمر أخير يجب أن تعرفه كمال لم يكن يتصرف وحده وأخوك لم يكن صاحب الفكرة من البداية هناك شخص آخر جمع بينهما وكان يعرف تماماً كيف يستغل ثقتك بالجميع.

قرأ الرسالة ثم كتب من يكون؟

جاء الرد بعد دقائق شخص كنت تعتبره أقرب أصدقائك جميعاً شخص كان يعرف عنك كل شيء تقريباً.

وضع الهاتف جانباً وبدأت الأسماء تمر في ذاكرته.

أشخاص كثيرون ووجوه متعددة ومواقف لم يكن يظن أنها تحمل أكثر من ظاهرها ثم تذكر رجلاً واحداً رجل كان دائماً حاضراً حين يحتاج إليه وكان أول من يسمع شكواه وآخر من يغادر مجلسه كان اسمه عبد القادر.

ولم يكن يوسف يعلم أن الحقيقة القادمة لن تكشف له خيانة صديق فحسب بل ستجعله يكتشف شيئاً أكثر قسوة أن الإنسان قد يكون أحياناً آخر من يعرف حقيقة حياته.

الفصل التاسع: الرجل الذي كان يعرف كل شيء

لم يكن عبد القادر شخصاً عادياً في حياة يوسف فقد تعرف إليه منذ سنوات طويلة وتقاسما الكثير من المواقف وكانا يتحدثان في السياسة والأدب والحياة ويختلفان أحياناً لكنهما كانا يعودان دائماً إلى النقاش ذاته وكأن الاختلاف بينهما يزيد العلاقة متانة.

كان يوسف يثق به إلى درجة أنه لم يكن يتردد في إخباره بأمور لا يعرفها عنه أقرب الناس إليه وكانت تلك الثقة تحديداً هي ما جعل احتمال خيانته أمراً يصعب استيعابه.

في صباح اليوم التالي قرر أن يزوره.

لم يتصل به مسبقاً بل ذهب مباشرة إلى مكتبه.

استقبله عبد القادر بابتسامة عريضة.

أهلاً بصديقي ما هذه الزيارة المفاجئة؟

صافحه يوسف وجلس.

اشتقت إلى جلساتنا القديمة.

ضحك عبد القادر.

إذن علينا أن نعوض ما فاتنا.

تبادلا الحديث لبعض الوقت ثم قال يوسف

هل تذكر قصة نوميديا؟

توقف عبد القادر عن تقليب أوراقه.

بالطبع لماذا تسأل؟

لأنني اكتشفت أن هناك أشخاصاً تدخلوا في علاقتنا ونقلوا إليها كلاماً لم أقله.

حاول عبد القادر أن يخفي ارتباكه.

هذه أمور تحدث كثيراً.

صحيح لكنني أريد أن أعرف شيئاً واحداً هل كنت تعرف ما حدث؟

نظر إليه عبد القادر ثم قال ومن أين جاءت هذه الأسئلة؟

أجابه يوسف من سنوات قضيتها أبحث عن إجابات ومن أشخاص لم يعودوا قادرين على إخفاء ما فعلوه.

ساد الصمت ثم قال عبد القادر

يوسف لا تجعل الشك يفسد علاقاتك ليس كل ما تسمعه حقيقة.

ابتسم يوسف.

لهذا جئت إليك لأسمع الحقيقة منك.

نهض عبد القادر من مكانه وأغلق باب المكتب.

ثم عاد وجلس وقال هناك أمور لا تعرفها وربما كان من الأفضل ألا تعرفها.

شعر يوسف بأن اللحظة التي انتظرها قد وصلت.

قال لم أعد أخشى المعرفة يا عبد القادر لقد تعبت من الجهل أكثر مما تعبت من الحقيقة.

نظر إليه عبد القادر طويلاً ثم قال جملة واحدة جعلت يوسف يعيد حساب كل شيء

أنا لم أكن أحاول التفريق بينكما من أجل كمال بل لأنني كنت أعتقد أن بقاءكما معاً سيكشف أمراً كنت أخفيه عنك منذ سنوات.

تجمد يوسف في مكانه.

أي أمر؟

أطرق عبد القادر رأسه.

الأمر يتعلق بوالدك... وبشيء حدث قبل أن تعرف نوميديا أصلاً.

الفصل العاشر: سرّ لم يكن ينبغي أن يُدفن

ظل يوسف ينظر إلى عبد القادر دون أن ينطق بكلمة.

كان اسم والده آخر اسم توقع أن يسمعه في هذا السياق فالأب مهما اختلفت معه يبقى في ذاكرة أبنائه رمزاً لا يخطر ببالهم أن يجدوه في حكايات الخداع والأسرار.

قال يوسف بصوت خافت ما علاقة والدي بكل ما حدث؟

تنفس عبد القادر بعمق ثم قال قبل سنوات وقبل أن تعرف نوميديا حدث خلاف كبير بين والدك وأحد أقاربه و كان خلافاً يتعلق بأمر مالي وبوثائق لم تكن واضحة للجميع وقد تدخل بعض الأشخاص لحل المشكلة لكن الأمور لم تنتهِ كما ينبغي.

وما علاقة ذلك بي؟

والدك كان يخشى أن تصل إليك بعض التفاصيل لأنه كان يعرف أنك لن تقبل السكوت عن أمر تراه ظلماً.

ابتسم يوسف بسخرية خفيفة.

وهل أصبح حب الحقيقة تهمة تستوجب إخفاء الأمور عني؟

لم يجب عبد القادر.

تابع يوسف أنت تتحدث عن والدي وعن سنوات من حياتي وعن أشخاص تدخلوا في علاقاتي أريد أن أفهم هل كنت تعرف كل هذا منذ البداية؟

قال عبد القادر كنت أعرف جزءاً منه.

ومنذ متى؟

منذ سنوات.

نهض يوسف من مكانه وسار بضع خطوات داخل المكتب.

كان يحاول السيطرة على انفعاله لكنه شعر بأن الكلمات أصبحت أثقل من أن تخرج بسهولة.

قال أخيراً كنت أجلس معك، وأحدثك عن مخاوفي وأطلب رأيك وأعتبرك من أقرب الناس إليّ بينما كنت تعرف أن هناك أموراً تخفيها عني ؟

أجاب عبد القادر

لم يكن الأمر بهذه البساطة.

لا أحد يخدع الناس بهذه البساطة يا عبد القادر دائماً توجد حكاية طويلة لتبرير كذبة قصيرة.

ساد الصمت.

ثم أخرج عبد القادر من درج مكتبه ملفاً قديماً.

وضعه أمام يوسف وقال

هذه بعض الوثائق اقرأها وبعدها ستفهم لماذا لم أتحدث.

فتح يوسف الملف.

كانت هناك نسخ من مراسلات قديمة وأوراق تتعلق بمعاملة مالية وأسماء لأشخاص لم يعرف بعضهم من قبل لكن ما أثار انتباهه لم يكن مضمون الوثائق بل تاريخ إحداها.

كان التاريخ يعود إلى الفترة نفسها التي بدأت فيها علاقته بنوميديا تتدهور.

رفع رأسه وقال

لماذا يتزامن كل شيء في هذه الفترة؟

أجابه عبد القادر

لأن الأمور لم تكن منفصلة كما كنت تظن.

ماذا تقصد؟

قال عبد القادر

كان هناك من يخشى أن تكتشف ما حدث وكان يعتقد أن انشغالك بعلاقتك بنوميديا سيجعلك تبتعد عن البحث في تلك القضية.

أعاد يوسف الورقة إلى الملف.

ثم سأل ومن كان هذا الشخص؟

لم يجب عبد القادر.

اكتفى بالنظر إليه نظرة طويلة.

وفي تلك اللحظة فهم يوسف أن الحقيقة لم تعد مجرد سر عائلي قديم بل شبكة من المصالح والصمت والخوف وأن الأشخاص الذين خذلوه ربما لم يكونوا جميعاً يتحركون للأسباب نفسها.

في طريق عودته لم يفكر يوسف في نوميديا ولا في كمال.

كان يفكر في والده.

تذكر ملامحه ونصائحه والأيام التي كان يجلس فيها إلى جانبه يحدثه عن الحياة والرجولة والكرامة.

هل يمكن أن يكون الأب نفسه قد أخفى عن ابنه حقيقة جوهرية؟

وهل يصبح الصمت خيانة حين يتعلق الأمر بحقوق الآخرين؟

لم يكن يريد أن يحاكم أحداً قبل أن يسمع منه فقرر أن يذهب إلى البيت العائلي في نهاية الأسبوع وأن يفتح الموضوع مباشرة فقد أدرك أن الحقيقة التي تأتي من أفواه الآخرين تظل ناقصة، مهما امتلكوا من وثائق وأدلة وكان يريد هذه المرة أن يسمع الحكاية من صاحبها.

الفصل الحادي عشر: الأب الذي لم يتكلم

كان البيت العائلي يحتفظ برائحة الماضي الأثاث نفسه والصور القديمة المعلقة على الجدران والساعة التي توقفت عقاربها عند الثالثة وكأن الزمن قرر أن يترك جزءاً من نفسه في ذلك المكان وجد والده جالساً في الشرفة يتأمل الحديقة الصغيرة.

اقترب منه وقبّل رأسه.

كيف حالك يا أبي؟

بخير يا بني وأنت؟

الحمد لله

جلس بجانبه تحدثا قليلاً عن أحوال العائلة وعن العمل وعن بعض الأخبار اليومية.

ثم قال يوسف أبي أريد أن أسألك عن موضوع قديم.

التفت إليه والده تفضل.

هل حدث خلاف مالي بينك وبين أحد الأقارب قبل سنوات؟

تغيرت ملامح الرجل لكنه حاول أن يخفي ذلك.

لماذا تسأل؟

لأنني عرفت بعض الأمور وأريد أن أسمع منك.

ظل الأب صامتا ثم قال

من أخبرك؟

هل يهمك من أخبرني أكثر مما يهمك أن أعرف الحقيقة؟

تنهد الأب وأسند ظهره إلى الكرسي.

يا بني ليست كل الحقائق نافعة وبعض الأمور ندفنها لأننا نريد حماية العائلة من الانقسام.

أجابه يوسف وهل تنجو العائلة حين تُبنى وحدتها على أمور لا يعرفها بعض أفرادها؟

قال الأب أنت لا تعرف ظروف تلك الفترة.

لهذا جئت أسألك.

ظل الأب ينظر إلى الحديقة وبعد صمت طويل بدأ يتحدث

قبل سنوات وثقت بأحد أقاربي في معاملة مالي و كان بيننا اتفاق لكن الأمور تغيرت لاحقاً وحصل خلاف وتدخل بعض الناس وفضلت أن أحتفظ بالأمر بعيداً عن الأبناء حتى لا تتعقد العلاقات.

وهل ضاعت حقوق أحد؟

لم يجب الأب مباشرة حصلت أخطاء من الجميع.

لكن هل كان هناك ظلم؟

رفع الأب عينيه إليه نعم ربما كان هناك ظلم.

شعر يوسف أن شيئاً في داخله انكسر.

لم يكن ينتظر من والده أن يكون معصوماً من الخطأ لكنه كان يريد أن يفهم لماذا تحول الصمت إلى وسيلة لحماية صورة العائلة حتى لو بقيت الحقيقة مجهولة.

قال أبي أنا لا أبحث عن شخص أدينه أبحث عن شيء يجعلني أفهم العالم الذي عشت فيه لطالما علمتني أن الحق لا يضيع وأن الإنسان يجب ألا يظلم غيره لكنني اليوم أكتشف أن بعض ما تعلمته لم يكن مطبقاً دائماً.

أطرق والده رأسه ثم قال ربما أخطأنا حين اعتقدنا أن إخفاء المشاكل يحلها.

كانت تلك أول مرة يسمع فيها يوسف من والده اعترافاً صريحاً يشبه الاعتذار.

مد الأب يده ووضعها على كتفه.

سامحني إن كنت قد أخفيت عنك شيئاً كان ينبغي أن تعرفه.

نظر يوسف إليه.

لا أريد منك أن تحكي لي الماضي كله يا أبي أريد فقط ألا نكرر أخطاءه.

في تلك الليلة عاد يوسف إلى منزله وهو يشعر أن نظرته إلى الحياة بدأت تتغير مرة أخرى.

لم يعد يرى الحقيقة باعتبارها مجرد اكتشاف أخطاء الآخرين بل أصبح يدرك أنها مسؤولية أيضاً.

فقد يكون الإنسان ضحية كذبة في مرحلة من حياته لكنه قد يكون شريكاً في استمرارها حين يختار الصمت في مرحلة أخرى.

فتح دفتره القديم وكتب أحياناً لا يرث الأبناء من آبائهم الأموال والعقارات وحدها بل يرثون أيضاً أسراراً لم يختاروها ومخاوف لم يصنعوها وأخطاء لم يرتكبوها ثم يجدون أنفسهم مطالبين بإصلاح ما لم يفسدوه.

أغلق الدفتر.

وقبل أن يخلد إلى النوم وصلته رسالة من رقم عبد القادر

هناك وثيقة لم أرها لك اليوم إنها تحمل اسمك وقد تكون أهم من كل ما قرأته.

توقف يوسف عن الحركة وفتح الرسالة مرة أخرى.

ثم كتب ما طبيعتها؟

جاء الرد إنها وثيقة تثبت أن الأمر لم يكن خلافاً مالياً فقط فهناك شخص استعمل اسمك دون علمك.

شعر ببرودة تسري في جسده فلم يعد الأمر يتعلق بماضٍ عائلي فحسب قد أصبح اسمه نفسه جزءاً من القضية.

الفصل الثاني عشر: حين يصبح اسمك دليلاً ضدك

و بعد أيام اتجه يوسف إلى مكتب عبد القادر مرة أخرى لم يكن مستعداً للانتظار.

وجد عبد القادر جالساً أمام مكتبه وأمامه ملف مختلف عن الملف السابق.

قال يوسف دون مقدمات أين الوثيقة التي تحدثت عنها؟

أخرج عبد القادر ورقة ووضعها أمامه.

قرأ يوسف العنوان ثم انتقل إلى الأسماء والتواريخ فكان اسمه موجوداً بالفعل لكن التوقيع لم يكن توقيعه.

رفع رأسه وقال من الذي وقّع باسمي؟

أجابه عبد القادر هذا ما حاولت معرفته طوال الفترة الماضية.

وهل لديك شك في شخص معين؟

تردد عبد القادر ثم قال نعم.

من؟

نظر إليه مباشرة كمال.

لم يتكلم يوسف.

كان كمال قد خذله في علاقته بنوميديا والآن يظهر اسمه في وثيقة تتعلق بقضية مالية تخص عائلته لكن السؤال الذي لم يجد له جواباً كان أكبر من ذلك كله لماذا اختار كمال اسمه تحديداً؟ وما الذي كان يريد تحقيقه؟

أعاد يوسف الورقة إلى الملف وقال أريد نسخة من كل شيء لن أتصرف بناءً على الظنون.

ابتسم عبد القادر ابتسامة خفيفة.

بدأت تتعلم.

أجابه يوسف لا يا عبد القادر أنا فقط بدأت أميز بين الحقيقة وبين من يدّعي امتلاكها.

ثم غادر المكتب.

وفي الخارج اتصل بشخص لم يتحدث معه منذ سنوات.

كان محامياً عرفه في إحدى المناسبات وكان يثق بحكمته ونزاهته إسمه عبد الله.

قال له أحتاج إلى استشارة قانونية بشأن وثيقة تحمل توقيعاً منسوباً إليّ وأنا أنكر أنني وقعتها.

جاءه الرد لا تتصرف قبل أن نتحقق من أصل الوثيقة احتفظ بكل ما لديك وسنرى الإجراءات المناسبة.

أغلق يوسف الهاتف.

وللمرة الأولى منذ بداية الحكاية لم يقرر أن يواجه أحداً بمفرده.

لقد أدرك أن الشجاعة ليست في الاندفاع نحو المواجهة بل في معرفة متى وكيف نواجه.

في المساء جلس إلى مكتبه وفتح دفتره.

وكتب ليس كل من يرفع شعار الحقيقة صادقاً وليس كل من يصمت جاهلاً فبعض الناس يتحدثون كثيراً ليخفوا ما يعرفون وبعضهم يصمتون لأنهم يخشون أن تتحول كلماتهم إلى ظلم جديد ولقد تعلمت أن الحقيقة لا تحتاج إلى صوت مرتفع بل إلى دليل وأن العدالة لا تتحقق بالغضب بل بالصبر والإنصاف.

ثم أضاف في أسفل الصفحة لكنني ما زلت أتساءل هل كان كل ما حدث مصادفة أم أن حياتي كانت تسير وفق حكاية كتبها آخرون دون علمي؟

أغلق الدفتر.

كان الليل قد انتصف.

وفي مكان آخر من المدينة كان كمال يتحدث عبر الهاتف مع شخص مجهول.

قال بصوت مضطرب قد بدأ يوسف يسأل عن الوثائق.

جاءه الرد وهل وصل إلى النسخة الأصلية؟

لا أعتقد.

صمت الطرف الآخر قليلاً ثم قال إذن علينا أن نتصرف قبل أن يعرف من يقف وراء كل هذا.

انتهت المكالمة.

ووضع الرجل هاتفه على الطاولة.

كان ذلك الرجل يعرف يوسف جيداً أكثر مما يتصور.

ولم يكن عبد القادر ولا كمال ولا حتى أحد أفراد العائلة.

بل شخصاً سيظهر في الفصل القادم وسيغير مجرى الرواية بأكملها.

الفصل الثالث عشر: الرجل الذي لا يظهر في الصورة

لم يكن يوسف يعرف أن بعض الأشخاص يستطيعون البقاء بعيداً عن المشهد ومع ذلك يكونون أصحاب التأثير الأكبر فيه.

كان يظن أن الخيانة تحتاج إلى وجه واضح وأن المؤامرات تبدأ من خلاف ظاهر أو مصلحة معلنة لكنه بدأ يكتشف أن أخطر ما في بعض البشر أنهم لا يتركون خلفهم أثراً يدل عليهم.

في صباح يوم الأحد تلقى اتصالاً من رقم أرضي.

السلام عليكم هل أتحدث مع السيد يوسف؟

نعم من معي؟

اسمي هواري وأعمل في مكتب توثيق أحتاج إلى مقابلتك بشأن وثيقة قديمة تحمل اسمك.

اعتدل يوسف في جلسته.

أي وثيقة؟

من الأفضل أن نتحدث وجهاً لوجه فالموضوع يتعلق بمعاملة أُنجزت قبل سنوات.

حدد له موعداً في اليوم التالي.

لم يخبر أحداً بالاتصال حتى عبد القادر الذي أصبح يشك في صدق رواياته فقد كان يريد أن يصل إلى الحقيقة دون أن يسمح لأحد بالتأثير في خطواته.

في اليوم التالي وصل إلى المكتب قبل الموعد بقليل.

استقبله هواري وكان رجلاً في بداية الستينيات تبدو على وجهه علامات الوقار والتعب.

بعد التحية أخرج ملفاً قديماً وقال

هذه الوثيقة ظهرت ضمن أرشيف معاملة سابقة اسمك وارد فيها لكن هناك ملاحظة أثارت انتباهي.

تناول يوسف الورقة.

كانت تتعلق بتنازل عن حق مالي ومؤرخة بتاريخ كان فيه خارج الولاية وفق ما يتذكر.

قال هذا ليس توقيعي.

أجاب هواري لا أستطيع تأكيد ذلك أو نفيه لكنني أستطيع أن أخبرك أن الوثيقة تحتاج إلى التحقق من صحتها خصوصاً أن هناك اختلافات تستحق الفحص.

وهل يمكن معرفة من أودعها؟

أغلق الرجل الملف.

هناك اسم في سجل المعاملة لكنني أفضل أن تطلب ذلك وفق الإجراءات القانونية.

شكره يوسف وغادر.

لم يكن يريد أن يتهم أحداً لكنه أصبح مقتنعاً بأن المسألة أكبر من خلاف قديم بين أفراد عائلة.

وفي طريقه تلقى اتصالاً من رقم مجهول فأجاب.

جاءه صوت رجل هادئ لا تتعب نفسك يا يوسف فبعض الأبواب لا ينبغي فتحها.

توقف عن المشي من أنت؟

شخص يعرف مصلحتك أكثر منك.

وهل تعرف مصلحتي إلى درجة أنك تتصل بي دون أن تكشف اسمك؟

ضحك الرجل ستعرفني عندما يحين الوقت.

ثم أغلق الخط.

الفصل الرابع عشر: ذاكرة لا تخون

عاد يوسف إلى البيت وأخرج صندوقاً قديماً كان يحتفظ فيه ببعض الأوراق والصور لم يكن يبحث عن شيء محدد لكنه شعر أن ذاكرته تحتاج إلى مساعدة من الأشياء التي بقيت شاهدة على الماضي.

وجد صوراً عائلية ورسائل قديمة وبعض الأوراق التي لم يلتفت إليها منذ سنوات وبين تلك الأشياء عثر على صورة جماعية التُقطت في إحدى المناسبات العائلية تأمل الوجوه واحداً واحداً كان والده في المقدمة وأخوه إلى جانبه و كمال يقف في الخلف وعبد القادر على الطرف الأيمن لكن عينيه توقفتا عند رجل آخر كان يقف بعيداً قليلاً عن الجميع بابتسامة هادئة ويدين متشابكتين لم يكن وجهه غريباً.

لقد رآه مرات كثيرة وسمع اسمه في مناسبات مختلفة لكنه لم يفكر يوماً في أن يكون طرفاً في أي خلاف.

كان اسمه عثمان.

رجل من معارف العائلة وصاحب علاقات واسعة وكان الجميع يصفه بأنه شخص يعرف كيف يحل المشكلات.

تذكر يوسف أنه كان حاضراً في الفترة التي بدأت فيها الأمور تتعقد.

وتذكر أيضاً أنه كان من الأشخاص الذين نصحوه بالابتعاد عن نوميديا بحجة أن الارتباط في تلك المرحلة قد يعرقل مستقبله.

هل كان ذلك مجرد رأي؟ أم أن النصيحة كانت جزءاً من حكاية أكبر؟

أعاد الصورة إلى الصندوق.

ثم قال لنفسه كم من الأشخاص مروا في حياتنا بصفة الناصحين بينما كانوا في الحقيقة يختارون لنا الطريق الذي يناسب مصالحهم؟

في المساء قرر أن يزور عثمان.

استقبله الرجل بترحاب كبير ودعاه إلى الجلوس.

أهلاً يوسف لقد طال غيابك!

الظروف يا عم عثمان.

وكيف هي أحوالك؟

بخير لكنني جئت لأستفسر عن أمر قديم.

تغيرت نبرة الرجل قليلاً.

تفضل.

هل تتذكر المعاملة المالية التي حدثت بين والدي وأحد الأقارب قبل سنوات؟

أجاب عثمان أتذكر بعض التفاصيل لكن لماذا تسأل الآن؟

لأن اسمي ظهر في وثيقة لا أعرف عنها شيئاً.

وضع عثمان فنجان القهوة على الطاولة.

انتبه يا يوسف لا تجعل نفسك طرفاً في خلافات قديمة. والدك أدرى بتلك الأمور.

أنا لا أبحث عن خلاف أبحث عن حقيقة.

ابتسم عثمان.

الحقيقة ليست دائماً كما نتصورها.

رد يوسف وهذا ما جعلني أبحث عنها بنفسي.

ساد الصمت.

ثم قال عثمان

سمعت أنك عدت تتحدث مع نوميديا وأنك بدأت تسأل عن كمال.

نظر يوسف إليه باستغراب.

ومن أخبرك بذلك؟

الناس تتحدث.

ابتسم يوسف.

يبدو أن الناس تعرف عن حياتي أكثر مما أعرف أنا.

ضحك عثمان محاولاً تغيير الموضوع.

لكن يوسف لاحظ شيئاً.

لم يكن الرجل يسأله عن الوثيقة بل كان يعرف تفاصيل لم يخبر بها أحداً.

وحين غادر أصبح أكثر اقتناعاً بأن عثمان ليس مجرد شاهد على الأحداث.

الفصل الخامس عشر: اعتراف تحت الضغط

لم تمضِ ثلاثة أيام حتى تلقى يوسف اتصالاً من كمال.

كان صوته مختلفاً و مرتبكاً وكأنه لم ينم منذ مدة.

يوسف أريد أن أراك.

ما الأمر ؟

هناك شيء يجب أن تعرفه.

قل ما لديك.

لا أستطيع عبر الهاتف.

تردّد يوسف قليلاً ثم وافق على اللقاء.

التقيا في مكان هادئ بعيداً عن الأماكن التي اعتادا ارتيادها.

جلس كمال أمامه وبدا عليه القلق.

قال أعرف أنك لم تعد تثق بي.

أجابه يوسف الثقة لا تضيع فجأة يا كمال بل تتآكل كلما اكتشف الإنسان أن ما كان يراه حقيقة لم يكن كذلك.

أطرق كمال رأسه.

أنا أخطأت في حقك.

لم يرد يوسف.

تابع نعم تحدثت مع نوميديا ونقلت إليها أموراً لم يكن ينبغي أن أنقلها لكنني لم أفعل ذلك وحدي ولم تكن كل الفكرة فكرتي.

من كان معك؟

عثمان.

بقي يوسف صامتاً.

قال كمال كان يعتقد أن علاقتك بنوميديا ستجعلك تبتعد عن بعض الأمور العائلية وكان يريد أن تبقى بعيداً عن القضية المالية أما أنا فقد وافقته لأسباب تخصني.

وما أسبابك؟

تردد كمال طويلاً ثم قال كنت أشعر أنك تتقدم في حياتك بينما بقيت أنا في مكاني وكنت أراك تحظى باحترام الناس وتكسب ثقة من حولك وكنت أكره اعترافي بأنني أغار منك.

نظر يوسف إليه دون غضب.

كان الاعتراف موجعاً لكنه بدا أكثر صدقاً من كل التبريرات السابقة.

قال كمال لم أكن أريد أن أخسرك إلى الأبد لكنني تورطت في أمر أكبر مني.

وهل وقعت باسمي في الوثيقة؟

خفض كمال رأسه.

لا.

هل تعرف من فعل؟

أعرف من أحضر الوثيقة لكنني لا أعرف من وقّعها.

ومن أحضرها؟

رفع كمال عينيه وقال عثمان.

تنفس يوسف بعمق ثم سأله

لماذا تخبرني الآن؟

أجاب كمال لأنني تلقيت تهديداً هناك من يريد أن يجعلني أتحمل كل المسؤولية وأنا لم أعد قادراً على الصمت.

ابتسم يوسف بحزن أتدري ما الذي يؤلمني يا كمال؟

ماذا؟

أنك لم تأتِ لتخبرني بالحقيقة حين كان بإمكانك إنقاذ ما تبقى من صداقتنا جئت حين أصبحت أنت خائفاً من نتائج كذبك.

لم يجد كمال ما يقوله.

نهض يوسف ثم توقف قبل أن يغادر.

سأترك للقانون أن يقول كلمته في الوثائق أما ما فعلته بي فلن أحتاج إلى محكمة كي أعرف أثره وغادر.

الفصل السادس عشر: ما لا تقوله الاعتذارات

في تلك الليلة لم يشعر يوسف بالانتصار كان يظن أن معرفة الحقيقة ستمنحه راحة كبيرة لكنه اكتشف أن بعض الحقائق تزيد الإنسان ثقلاً لأنها تجبره على إعادة النظر في سنوات كاملة.

فتح هاتفه ووجد رسالة من نوميديا

هل عرفت الآن لماذا كنت أطلب منك أن تسمعني ؟

كتب لها عرفت بعض الأمور لكنني لم أعد الشخص الذي كان ينتظر تفسيراً لكل شيء.

أجابته وهل انتهى كل شيء بيننا ؟

ظل ينظر إلى السؤال طويلاً.

ثم كتب لا أعرف إن كانت الأشياء تنتهي حقاً لكنني أعرف أن العودة إلى الماضي لا تعني دائماً أننا نستطيع استعادته.

لم ترد.

وضع الهاتف جانباً.

ثم فتح دفتره وكتب ليس كل اعتذار يعيد العلاقة إلى ما كانت عليه وليس كل اعتراف يمحو أثر الخطيئة فثمة أشياء يمكن إصلاحها وأخرى لا يبقى منها إلا درس نتعلمه على حساب أعمارنا ولعل أقسى ما يتعلمه الإنسان أن بعض الذين خذلوه لم يكونوا يجهلون قيمة الثقة بل كانوا يعرفونها جيداً ولهذا استعملوها ضده.

أغلق الدفتر.

وفي الصباح كان عليه أن يتخذ قراراً مختلفاً.

لم يعد يريد أن يقضي بقية حياته في مطاردة الأشخاص الذين أساؤوا إليه.

لكنه كان يعلم أن الوثيقة التي تحمل اسمه تحتاج إلى متابعة قانونية وأن الحقيقة المالية لم تتضح كاملة بعد.

لقد أصبح أمامه طريقان طريق الانتقام الذي قد يستهلك ما تبقى من عمره، وطريق العدالة الذي يتطلب الصبر والهدوء واختار الثاني.

لكن ما لم يكن يعرفه أن عثمان كان قد بدأ بالفعل في ترتيب خطوة جديدة خطوة ستضع يوسف أمام اختبار لم يواجهه من قبل.

الفصل السابع عشر: حين يصبح الصمت موقفاً

لم يكن الصمت دائماً علامة ضعف كما لم يكن الكلام دائماً دليلاً على الشجاعة فقد يصل الإنسان إلى مرحلة يدرك فيها أن كثرة الحديث لا تغير شيئاً وأن بعض المعارك لا تستحق أن يخوضها بالصوت المرتفع.

كان يوسف قد أمضى أسابيع وهو يجمع خيوط الحكاية يستمع إلى هذا ويقرأ أوراق ذاك ويحاول أن يميز بين ما حدث فعلاً وما أضيف إليه من روايات.

لكنه بدأ يشعر بأن القضية لم تعد تستنزف وقته فحسب بل أصبحت تسرق منه قدرته على الاستمتاع بالأشياء البسيطة.

لم يعد يقرأ كما كان ولم تعد جلساته مع أصدقائه تمنحه المتعة نفسها حتى قهوته الصباحية أصبحت تمر دون أن ينتبه إلى مذاقها.

وفي إحدى الأمسيات بينما كان يتصفح بعض الأوراق رن هاتفه.

كان المتصل شخصاً لا يعرفه.

السلام عليكم هل أنت يوسف؟

- نعم.

اسمي أمين، وأعتقد أن لدي ما تبحث عنه.

ماذا تقصد؟

لدي وثائق تتعلق بالمعاملة القديمة وأعرف بعض التفاصيل التي لم يخبرك بها أحد.

تردد يوسف قليلاً.

ومن أين حصلت عليها؟

كنت أعمل مع عثمان في تلك الفترة وكنت شاهداً على بعض ما حدث.

اتفقا على اللقاء في اليوم التالي.

كان أمين رجلاً في منتصف الأربعينيات تبدو عليه ملامح الجدية والتحفظ.

جلس قبالة يوسف ووضع حقيبة صغيرة على الطاولة.

قال قبل أن أعطيك هذه الأوراق أريد أن تعرف أنني لم أتحدث سابقاً لأنني كنت أخشى فقدان عملي وربما كنت مخطئاً حين فضلت سلامتي على قول الحقيقة.

أجابه يوسف لا أريد أن تحكي لي ما أريد سماعه أريد فقط أن تقول ما تعرفه.

فتح أمين الحقيبة وأخرج نسخاً من مراسلات قديمة.

كانت الأوراق تشير إلى أن عثمان كان يسعى إلى إبعاد يوسف عن متابعة القضية العائلية وأنه استعان بكمال لنقل بعض المعلومات وإثارة الخلافات بينه وبين نوميديا لكن المفاجأة لم تكن في ذلك.

كانت هناك رسالة مؤرخة قبل سنوات تتضمن إشارة إلى مبلغ مالي جرى تحويله باسم يوسف دون علمه.

قرأ يوسف الوثيقة مرتين.

ثم سأل هل هذه العملية تمت فعلاً؟

أجاب أمين هذا ما تشير إليه السجلات التي اطلعت عليها لكن إثبات المسؤولية يحتاج إلى مراجعة الوثائق الأصلية والجهات المختصة.

ومن المستفيد؟

لا أستطيع الجزم لكن اسم عثمان يتكرر في أكثر من مراسلة.

أغلق يوسف الملف.

كان يشعر بأن الصورة أصبحت أوضح لكنه لم يرد أن يسمح للغضب بأن يقوده إلى استنتاجات متسرعة.

قال لأمين أشكرك لأنك قررت الكلام لكنني أريد منك أن تكون مستعداً لتقديم شهادتك بالطرق القانونية إن ثبتت أهمية ما لديك.

أومأ أمين موافقاً.

وغادر يوسف اللقاء وهو يدرك أن الحقيقة لا تحتاج إلى مزيد من الصراخ بل إلى شجاعة من يملكون الأدلة.

الفصل الثامن عشر: عثمان بلا أقنعة

لم يكن يوسف يحب المواجهات لكنه لم يعد يرى سبباً لتأجيلها اتصل بعثمان وطلب لقاءه.

اختار الرجل مكتبه المعتاد واستقبل يوسف بوجه حاول أن يبدو طبيعياً.

أهلاً بك ما الذي جاء بك هذه المرة؟

جلس يوسف ووضع ملفاً فوق الطاولة.

جئت لأتحدث عن الوثائق.

تغيرت ملامح عثمان.

أي وثائق؟

الوثائق التي تحمل اسمي والمعاملة التي تمت دون علمي.

ابتسم عثمان ابتسامة متكلفة

يبدو أنك أصبحت تصدق كل ما يقال لك.

أجابه يوسف لم أعد أصدق كل ما يقال ولهذا أتحقق مما أراه.

فتح الملف وأخرج إحدى المراسلات.

تأمل عثمان الورقة ثم أعادها إلى الطاولة.

لا أعرف مصدر هذه الأوراق.

ربما لكنني أعرف أن اسمك يتكرر فيها.

اسمع يا يوسف أنت شاب ذكي ولا ينبغي أن تدخل نفسك في أمور قديمة لا تعرف ظروفها.

قال يوسف لقد سمعت هذه العبارة كثيراً وكل من قالها كان يخفي شيئاً.

نهض عثمان من كرسيه وسار نحو النافذة.

الحياة ليست بهذه البساطة فأحياناً نضطر إلى اتخاذ قرارات لا تعجب الجميع.

وهل كان من الضروري استعمال اسمي دون علمي؟

استدار عثمان أنت لا تفهم حجم ما حدث آنذاك.

ربما لا أفهم كل التفاصيل لكنني أفهم أن حقوق الناس ليست ملكاً لأحد حتى يتصرف فيها كما يشاء.

ساد صمت طويل.

ثم قال عثمان ماذا تريد مني الآن؟

أجابه يوسف لا أريد منك شيئاً شخصياً أريد أن تُراجع الأمور عبر الجهات المختصة وأن يتحمل كل شخص مسؤوليته إن ثبت أنه ارتكب مخالفة.

ضحك عثمان بسخرية.

وهل تظن أن الحقيقة ستعيد إليك السنوات التي ضاعت؟

نظر إليه يوسف وقال لا لكنها قد تمنع ضياع سنوات أخرى.

نهض وغادر.

وللمرة الأولى شعر أن المواجهة لم تكن بهدف الحصول على اعتراف بل لإعلان أنه لم يعد مستعداً لأن يكون الحلقة الأضعف في حكاية الآخرين.

الفصل التاسع عشر: المرأة التي اختارت الرحيل

بعد أيام تلقى يوسف اتصالاً من نوميديا.

قالت أريد أن أراك ليس للحديث عن الماضي بل لأقول لك شيئاً.

وافق.

التقيا في حديقة عامة بعيداً عن المقهى الذي شهد لقائهما السابق.

كانت نوميديا تبدو أكثر هدوءاً لكنها تحمل في عينيها شيئاً من الحزن.

قالت عرفت أنك اكتشفت بعض ما حدث.

نعم.

وأعرف أنني كنت جزءاً من ذلك.

نظر إليها دون أن يقاطعها.

تابعت ربما كنت ضحية ما قيل لي لكنني أيضاً ظلمتك حين اخترت تصديق الآخرين كنت أستطيع أن أسألك وأن أسمع منك لكنني خفت من مواجهة الحقيقة.

قال يوسف الخوف لا يجعل القرار صحيحاً.

أعرف.

ثم سألته هل يمكن أن نبدأ من جديد؟

لم يجب فوراً.

كان السؤال أكبر من أن يختصر في نعم أو لا.

تأمل الأشجار المحيطة بهما ثم قال أتعلمين يا نوميديا ؟ كنت أظن أنني إذا عرفت سبب رحيلك فسأرتاح لكنني اكتشفت أن معرفة السبب لا تعني أنني أريد العودة.

خفضت عينيها.

هل لم يعد في قلبك شيء تجاهي؟

ابتسم بحزن.

ليس كل ما يبقى في القلب يصلح لأن يكون بداية جديدة.

قالت كنت أتمنى لو أن الأمور جرت بطريقة مختلفة.

وأنا أيضاً لكننا لا نستطيع أن نعيش بقية حياتنا في مراجعة ما كان ينبغي أن يحدث.

سكتت قليلاً ثم قالت هل تسامحني؟

أجاب أسامحك لكن المسامحة لا تعني أن نعيد كل شيء إلى مكانه القديم أحياناً نسامح كي نتحرر لا كي نعود.

نهض يوسف وصافحها.

كانت تلك المرة الأولى التي يودعها فيها دون أن ينتظر منها رسالة أخرى.

في طريق عودته شعر بخفة لم يعهدها منذ سنوات.

لم يكن قد استعاد علاقة قديمة ولم يحصل على اعتذار يعيد إليه ما فقده لكنه تحرر من سؤال ظل يطارده طويلاً وأدرك أن بعض النهايات لا تحتاج إلى خصام بل إلى شجاعة الاعتراف بأن الطريق انتهى.

الفصل العشرون: الذين لا ينتصرون رغم معرفة الحقيقة

مرت أسابيع بدأت الإجراءات القانونية المتعلقة بالوثائق وأصبحت القضية تسير في مسارها الصحيح لم يعد يوسف يطارد الأشخاص ولم يعد يقضي يومه في محاولة معرفة ما يقولونه عنه كان يذهب إلى عمله ويعود إلى منزله ويقرأ ويكتب.

أما كمال فقد حاول الاتصال به أكثر من مرة لكنه لم يكن يجد الكلمات المناسبة.

وفي إحدى المرات أرسل إليه رسالة طويلة يوسف أعرف أنني فقدت حقاً كبيراً حين خنت ثقتك لم أكن أتخيل أن الغيرة يمكن أن تجعل الإنسان يؤذي أقرب الناس إليه لا أطلب منك أن تعود الأمور كما كانت لكنني أريدك أن تعرف أنني نادم.

قرأ يوسف الرسالة ولم يجب.

لم يكن يريد أن يعاقبه بالصمت لكنه لم يعد يشعر بضرورة الرد على كل ما يصل إليه.

لقد فهم أخيراً أن الإنسان لا يستطيع أن يمنح الجميع فرصة جديدة وأن التسامح لا يعني أن يضع نفسه في الموضع نفسه مرة أخرى.

وفي المساء جلس أمام دفتره وكتب هناك انتصارات لا يراها أحد أن تتوقف عن انتظار اعتذار وأن تتعلم مغادرة المكان الذي لم يعد يليق بك وأن تتخلص من رغبتك في إثبات أنك كنت على حق أمام أشخاص لم يكونوا يبحثون عن الحقيقة أصلا فليس كل من عرف الحقيقة انتصر فبعضنا يخسر أشخاصاً وأعواماً وطمأنينة في سبيل الوصول إليها لكن الخسارة الأكبر أن يعرف الإنسان الحقيقة ثم يواصل العيش بالطريقة نفسها التي كانت سبباً في ألمه.

أغلق الدفتر.

ثم نظر من النافذة.

كان المطر قد بدأ يهطل من جديد.

ابتسم وأحس أن حياته بدأت تستعيد شيئاً من هدوئها.

لكنه لم يكن يعلم أن رسالة ستصله في صباح اليوم التالي تحمل توقيع شخص لم يكن يتوقع أن يعود إلى حياته.

رسالة قصيرة لم تتجاوز سطرين يوسف هناك شيء لم تعرفه عن والدك وما اكتشفته ليس سوى نصف الحقيقة .

وكان الاسم في نهاية الرسالة أمين.

الفصل الحادي والعشرون: النصف الآخر

لم يستطع يوسف أن يتجاهل الرسالة واتصل بأمين فوراً.

ماذا تقصد بأنني عرفت نصف الحقيقة فقط؟

قال أمين هناك وثيقة أخرى لم أكن أملكها حين التقينا فقد وصلتني قبل يومين وهي تتعلق بالشخص الذي تضرر من المعاملة القديمة.

ومن هو؟

قريب والدك الذي دخل معه في الخلاف.

وماذا حدث له؟

صمت أمين قليلاً ثم قال

لقد مات قبل ثلاث سنوات.

شعر يوسف بثقل في صدره.

وهل ترك شيئاً؟

ترك رسالة وأوصى بأن تصل إلى عائلتك عندما يحين الوقت المناسب.

ولماذا لم تصل من قبل؟

لأنها كانت عند شخص لم يكن يريد أن تظهر.

من هو؟

أجاب أمين

أخوك الأكبر أغلق يوسف عينيه.

لقد ظن أن المواجهة مع أخيه قد انتهت وأن الاعتذار الذي سمعه كان بداية صفحة جديدة.

لكن الرسالة أعادت كل شيء إلى نقطة البداية.

قال يوسف أريد أن أقرأها.

سأرتب ذلك.

أنهى المكالمة وبقي جالساً.

كان يشعر أن الرواية التي عاشها طوال السنوات الماضية لم تكن مجرد قصة خيانة بل حكاية عائلة حاولت حماية نفسها بالصمت حتى أصبح الصمت نفسه عبئاً ينتقل من جيل إلى جيل.

ولأول مرة لم يسأل نفسه عمن كذب عليه.

بل سأل سؤالاً آخر كم من الحقائق نؤجلها باسم المحبة حتى يأتي يوم تصبح فيه معرفتها أشد إيلاماً من وقوعها؟

الفصل الثاني والعشرون: رسالة من رجل رحل

ظلّ يوسف واقفاً أمام أمين وعيناه معلّقتان بالظرف القديم الذي أخرجه الرجل من حقيبته الجلدية.

كان الظرف مصفرّ الحواف وقد كُتب على وجهه بخط مرتجف إلى من سيأتي بعدي حين يصبح الصمت أثقل من الكلام.

مدّ يوسف يده نحوه لكنه توقف قبل أن يلمسه.

قال بصوت خافت هل أنت متأكد أن هذه الرسالة تخص عائلتي؟

أجابه أمين لم أكن لأحضرها إليك لو لم أكن متأكداً فصاحبها هو قريب والدك الذي توفي قبل ثلاث سنوات وقد تركها عند عثمان ثم انتقلت بين أيدٍ كثيرة قبل أن تصل إليّ.

تأمل يوسف الظرف طويلاً ثم سأله

ولماذا احتفظ بها أخي كل هذه المدة؟

تنهد أمين وقال

ربما لأنه قرأها قبلك وربما لأنه خاف مما قد تجده فيها فلا أريد أن أظلمه قبل أن تسمع ما فيها.

أخذ يوسف الرسالة وجلس إلى الطاولة القريبة من النافذة وفتح الظرف بحذر كأنما يخشى أن يمزق شيئاً من الماضي.

كانت الرسالة قصيرة لكن كلماتها بدت أثقل من سنوات طويلة من الانتظار.

بدأ يقرأ

إلى يوسف وإن لم تصل إليك هذه الكلمات إلا بعد رحيلي.

لا أعرف إن كنت ستسامحني ولا إن كنت سأجد في نفسي الشجاعة لأطلب منك ذلك لكنني لم أعد أحتمل أن أموت وفي صدرك صورة ناقصة عن أبيك وفي قلبك شكّ في نفسك.

قبل سنوات دخلتُ مع والدك في خلاف مالي بسبب مشروع لم يكتمل كما اتفقنا فأخطأ والدك في بعض الحسابات وأخطأتُ أنا حين جعلت الخلاف أكبر من حجمه فلم يكن رجلاً بريئاً من كل خطأ لكنه لم يكن اللص الذي صوّروه لك.

أما الورقة التي ظهر عليها اسمك فلم تكن أنت من وقّعها أمامي لقد استُخدم اسمك في ذلك الاتفاق دون حضورك ولم أطالبك يوماً بشيء لأنني كنت أعلم أنك لم تكن طرفاً في الأمر.

لقد حاول والدك أن يعالج الأمر بصمت وكنتُ أنا أرفض أن ينتهي الخلاف دون أن أسترد حقي ثم مضت السنوات وكبر الخلاف حتى صار الناس يتحدثون عن أشخاص لم يعرفوا حقيقة ما حدث.

إن كان لك من حق فابحث عنه بالحجة لا بالغضب وإن كان لأبيك من خطأ فلا تجعل خطأه حكماً على حياتك كلها.

سامحني لأنني تأخرت في الكلام وسامح والدك لأنه اختار الصمت حين كان الكلام واجباً.

رجل عرف الحقيقة متأخراً.

توقفت عينا يوسف عند السطر الأخير.

لم تكن الرسالة تبرئة كاملة لأبيه ولم تكن إدانة له كانت شيئاً أصعب من ذلك كانت حقيقة لا تمنح أحداً راحة الانتصار.

رفع رأسه نحو أمين وسأله

هل كان أخي يعلم بهذا؟

أجاب أمين بعد صمت نعم لقد وصلته الرسالة قبل وفاة صاحبها لكنه لم يعرف ماذا يفعل بها.

ابتسم يوسف ابتسامة حزينة.

يبدو أن الجميع كانوا يملكون جزءاً من الحقيقة وكانوا يتركونني أعيش وسط الأكاذيب.

قال أمين أحياناً لا يخفي الناس الحقيقة لأنهم يكرهوننا بل لأنهم يظنون أننا أضعف من مواجهتها لكنهم لا يدركون أن إخفاءها قد يكون أشد قسوة من سماعها.

طوى يوسف الرسالة ووضعها فوق الطاولة.

كان يريد أن يغضب أن يصرخ أن يذهب إلى أخيه ويسأله عن السنوات التي سرقها منه بصمته لكنه أدرك أن الغضب لن يعيد شيئاً وأن الحقيقة التي انتظرها طويلاً لم تأتِ لتمنحه فرصة الانتقام بل لتضعه أمام نفسه من جديد.

في تلك اللحظة رنّ هاتفه وكان المتصل أخاه.

ظل ينظر إلى الشاشة بضع ثوانٍ قبل أن يجيب.

السلام عليكم.

جاءه صوت أخيه متعباً

يوسف هل وصلتك الرسالة؟

أغمض يوسف عينيه.

نعم وصلتني.

ساد الصمت بينهما ثم قال أخوه

كنت أخاف أن تعرف كل شيء دفعة واحدة.

أجابه يوسف لم تكن تحميني يا أخي كنت تحميني من حقّي في أن أعرف.

لم يجد أخوه جواباً.

ثم أضاف يوسف بصوت هادئ لا أريد منك تبريراً الآن أريد فقط أن نلتقي وأن تتحدث معي هذه المرة دون أن تختار عني ما ينبغي أن أعرفه.

أنهى المكالمة وبقي ينظر إلى الرسالة.

لقد اكتشف أن الحقيقة ليست دائماً باباً يؤدي إلى الطمأنينة أحياناً تكون مرآة تكشف لنا أخطاء من أحببناهم وتكشف لنا أيضاً كم من العمر أضعناه في محاكمة أنفسنا بسبب أخطاء لم نرتكبها.

وفي المساء قرر يوسف أن يزور قبر الرجل الذي كتب الرسالة.

لم يكن ذاهباً ليغفر له كل شيء ولا ليحاسبه بعد موته بل ليقول له إن الكلمات التي تأخرت كثيراً وصلت أخيراً.

لكنه كان يعلم أن هناك مواجهة أخرى تنتظره مواجهة مع أخيه وربما مع أبيه الذي رحل تاركاً وراءه أسئلة لم تجد جواباً.

فبعض الرسائل لا تنهي الحكايات بل تمنحنا الشجاعة لنبدأ مواجهتها.

الفصل الثالث والعشرون: حين يتكلم الأخ أخيراً

لم ينم يوسف تلك الليلة.

كانت الرسالة موضوعة فوق الطاولة وقد قرأها مرات عديدة لا بحثاً عن كلمات جديدة بل بحثاً عن تفسير لما عجز عن فهمه طوال السنوات الماضية.

كان أكثر ما يؤلمه أن أخاه عرف وأنه اختار الصمت.

لم يكن ينتظر من أخيه أن يكون مثالياً ولم يكن يطالبه بأن يحميه من أخطاء الحياة لكنه كان ينتظر منه ألا يتركه وحيداً في مواجهة حقيقة يعرف هو جزءاً منها.

في الصباح اتصل به أخوه وطلب لقاءه.

اختار يوسف بيت العائلة المكان الذي شهد طفولتهما وضحكاتهما وخلافاتهما الصغيرة التي كانت تنتهي دائماً بمصالحة.

وصل أخوه قبل الموعد بقليل جلس في غرفة الجلوس يتأمل الصور المعلقة على الجدار كانت صورة والدهما في صدر الغرفة بملامح هادئة ونظرة لم يستطع يوسف رغم مرور السنوات أن يقرأ ما وراءها.

دخل يوسف ولم يتبادلا العناق المعتاد.

قال يوسف أريد أن أسمع منك كل شيء لا ما تراه مناسباً لي ولا ما تعتقد أنني أستطيع تحمّله أريد الحقيقة كاملة.

خفض أخوه رأسه ثم قال عندما وصلتني الرسالة كنت قد عرفت أن الخلاف بين أبي وذلك الرجل لم يكن كما كنا نسمع عرفت أن أبي أخطأ وأن قريبنا لم يكن بريئاً تماماً وأن اسمك استُخدم في أوراق لم تكن طرفاً فيها.

ولماذا لم تخبرني؟

لأنني كنت أخشى أن تنهار صورتك عن أبي.

ابتسم يوسف بمرارة.

وهل كانت صورة أبي أهم من حقيقتي؟

لم يجب الأخ مباشرة ثم قال كنت أظن أنني أحميك فأبي كان قد رحل والعائلة كانت تعيش ظروفاً صعبة ولم أرد أن أفتح جرحاً ظننت أنه التأم.

اقترب يوسف من النافذة ونظر إلى الشارع الذي كان يركض فيه طفلاً خلف أخيه.

قال الجروح التي نخفيها لا تلتئم يا أخي إنها تتعلم فقط كيف تسكن فينا دون أن نراها.

ساد صمت طويل.

ثم أخرج الأخ من جيبه ورقة صغيرة ووضعها أمام يوسف.

هناك شيء آخر لم أخبرك به.

لم يتحرك يوسف لكنه شعر بأن قلبه عاد إلى ذلك الاضطراب القديم.

تابع أخوه بعد وفاة أبي وجدت في أغراضه دفتر حسابات لم يكن يتضمن كل التفاصيل لكنه يثبت أنه حاول تسوية الخلاف وأنه دفع جزءاً من المبلغ ثم توقف الأمر بسبب خلاف جديد بينه وبين قريبه.

وهل كان عثمان يعلم بذلك؟

أعتقد أنه كان يعلم بعض التفاصيل وربما استغل جهلك بها ليجعل الأمر يبدو وكأن والدك خدع الجميع ثم استُخدم اسمك لتكتمل الصورة.

أخذ يوسف الورقة وتأملها.

لم يكن فيها ما يكفي لإصدار حكم نهائي لكنها كانت خيطاً آخر يقوده نحو الحقيقة.

قال بهدوء سأحتفظ بهذه الوثائق وسأعرضها على مختص حتى نفهم ما تثبته وما لا تثبته فلا أريد أن أتهم أحداً بما لا أستطيع إثباته.

رفع أخوه عينيه إليه وكأنه لم يتوقع منه هذا الهدوء.

ألا تكرهني؟

جلس يوسف قبالته.

لا أريد أن أكرهك لقد تعبت من حمل مشاعر الآخرين فوق قلبي لكنني لا أستطيع أن أتصرف وكأن شيئاً لم يحدث.

وهل يمكن أن تسامحني؟

تأمل يوسف وجه أخيه طويلاً ثم أجاب

ربما لكن عليك أن تفهم أن الاعتذار لا يمحو السنوات التي قضيتها أبحث عن إجابات ولا يعيد الثقة إلى مكانها بمجرد أن تنطق به فالمسامحة طريق وليست كلمة نقولها لننهي الحديث.

انحنى أخوه ووضع يديه على وجهه.

وللمرة الأولى منذ سنوات بكى أمامه دون أن يحاول إخفاء دموعه.

لم يشعر يوسف بالانتصار وهو يراه يبكي بل شعر بحزن عميق على رجلين جمعتهما طفولة واحدة ثم فرّق بينهما خوف لم يكن ينبغي أن يكبر إلى هذا الحد.

وقبل أن يغادر توقف يوسف أمام صورة والده.

قال في نفسه كم من الآباء يرحلون تاركين أبناءهم يتصارعون مع أخطائهم وكم من الأبناء يقضون أعمارهم في الدفاع عن صورة لم يعرفوا حقيقتها كاملة؟

خرج من البيت وكانت الشمس تميل نحو الغروب.

لم تنتهِ القضية بعد ولم تُكشف كل الأسماء لكن شيئاً واحداً تغير في داخله لم يعد يبحث عن الحقيقة ليهزم بها أحداً بل ليحرر نفسه من حياة بُنيت على روايات الآخرين.

وفي طريق عودته وصلته رسالة من نوميديا

سمعت أنك بدأت تعرف ما حدث في الماضي أتمنى ألا تجعلك الحقيقة تفقد إيمانك بالناس جميعاً.

قرأ الرسالة مرتين ثم كتب

الحقيقة لا تجعلنا نفقد الإيمان بالناس لكنها تعلمنا ألا نمنح ثقتنا دون وعي فبعض الناس يخذلوننا وبعضهم يخطئون في حقنا وقليلون فقط يملكون الشجاعة ليعترفوا بذلك.

ثم أغلق هاتفه.

كان يعلم أن الحديث مع نوميديا لم ينتهِ وأن بينهما صفحات لم تُقرأ بعد.

فليس كل من أخفى عنا الحقيقة عدواً وليس كل من اعترف بها صديقاً لكننا لا نستطيع أن نبدأ من جديد ما دمنا نعيش أسرى لما لم يُقَل.

الفصل الرابع والعشرون: ما تبقّى من نوميديا

لم تكن رسالة نوميديا عادية ولم يكن رد يوسف كافياً لإنهاء ما بينهما.

فثمة علاقات لا تنتهي حين نفترق بل تظل معلّقة في مكان ما بين الذاكرة والندم تنتظر لحظة يجرؤ فيها أحد الطرفين على الاعتراف بما لم يستطع قوله في وقته.

في اليوم التالي جلس يوسف في المقهى القديم الذي اعتاد أن يلتقي فيه بأصدقائه اختار طاولة قريبة من النافذة وطلب قهوته دون أن يرفع عينيه عن الشارع.

كانت نوميديا قد أخبرته أنها تريد رؤيته.

وصلت بعد دقائق.

كانت ملامحها مختلفة قليلاً لا بسبب السنوات وحدها بل بسبب ذلك التعب الذي تتركه القرارات الصعبة في وجوه أصحابها اقتربت منه ألقت التحية وجلست في مواجهته.

قالت لم أكن أعرف أن الأمور وصلت إلى هذا الحد.

أجابها لم يكن أحد يعرف كل شيء ومع ذلك كان الجميع يتحدثون وكأنهم يملكون الحقيقة كاملة.

نظرت إليه طويلاً ثم قالت:

يوسف هناك شيء يجب أن تعرفه عندما ابتعدت عنك لم يكن كمال وحده من تحدث معي فلقد وصلتني كلمات كثيرة من أشخاص كنت أظن أنهم يعرفونك جيداً قالوا إنك تخفي عني أموراً وإنك لا تقول الحقيقة كاملة وإن مستقبلك معي سيكون مليئاً بالمشكلات.

ابتسم يوسف ابتسامة خفيفة.

وهل سألتِني ؟

خفضت عينيها.

لا.

لماذا ؟

لأنني خفت أن تكون تلك الكلمات صحيحة ولأنني كنت أبحث عن سبب يجعلني أصدق ما أسمعه بدلاً من أن أواجهك بما سمعت.

لم يقاطعها.

تابعت بصوت متردد كنت أحبك لكنني لم أكن أملك الشجاعة الكافية لأقف أمام الجميع وأقول إنني أصدقك فاخترت الطريق الأسهل ورحلت.

ظل يوسف صامتاً.

كان يسمع اعترافاً انتظره طويلاً لكنه اكتشف أن بعض الاعترافات تأتي بعد أن تتغير الأشياء التي كان يمكن أن تنقذها.

قال أخيراً

كنت أحتاج إليك يومها لا لأنك كنت مطالبة بأن تحاربي العالم من أجلي بل لأنني كنت أستحق منك سؤالاً واحداً قبل أن تصدقي الجميع.

امتلأت عيناها بالدموع.

أعرف ذلك الآن.

لكن المعرفة المتأخرة لا تعيد الزمن يا نوميديا.

أطرقت برأسها ثم قالت هل ما زال في قلبك شيء تجاهي؟

لم يجب سريعاً.

نظر إلى فنجان القهوة ثم إلى الشارع الذي كان يعبره المارة دون أن يعرفوا شيئاً عن الحكايات التي يحملها كل واحد منهم.

قال لا أستطيع أن أنكر أنني أحببتك بصدق ولا أستطيع أن أتصرف وكأن تلك السنوات لم تكن موجودة لكنني لم أعد الرجل الذي تركته خلفك لقد تغيّرت أشياء كثيرة في داخلي وبعضها لن يعود كما كان.

قالت لا أطلب منك أن نعود كما كنا.

وماذا تطلبين؟

أن تمنحنا فرصة لنتحدث دون خوف ودون أن يتدخل أحد بيننا.

ابتسم يوسف بحزن.

الحديث ممكن أما العودة فتحتاج إلى أكثر من الاشتياق تحتاج إلى ثقة لم تعد موجودة وإلى وقت لا أستطيع أن أعدك بما سيحمله.

ساد بينهما صمت لم يكن عدائياً هذه المرة.

ثم أخرجت نوميديا من حقيبتها صورة قديمة ووضعَتها أمامه.

كانت صورة تجمعهما في يوم بعيد يوم كانا يعتقدان أن النوايا الطيبة تكفي لحماية الحب من كل شيء.

تأمل يوسف الصورة ثم أعادها إليها.

قال احتفظي بها فليست كل الذكريات التي تؤلمنا يجب أن نتخلص منها فبعضها يذكّرنا بمن كنا وبما تعلمناه.

غادرت نوميديا بعد قليل دون وعد باللقاء ودون اتفاق على العودة.

أما يوسف فبقي جالساً يفكر في أمر لم يفهمه من قبل فلقد قضى وقتاً طويلاً يلوم الذين خدعوه لكنه لم يسأل نفسه يوماً لماذا كان يمنح الآخرين سلطة كبيرة على سلامه الداخلي.

كان يظن أن معرفة الحقيقة ستعيد إليه كل ما فقده ثم اكتشف أنها لا تعيد الراحلين ولا تصلح السنوات ولا تمحو الندوب إنها فقط تضع الأشياء في أماكنها الصحيحة.

وفي طريق عودته رنّ هاتفه برسالة من رقم غير معروف له

لقد عرفت ما حدث مع نوميديا و كمال و عثمان لكن هناك أمراً واحداً لم تعرفه بعد الشخص الذي بدأ كل شيء لم يكن عثمان.

توقف يوسف عن المشي.

قرأ الرسالة مرة ثانية ثم اتصل بالرقم.

كان مغلقاً.

رفع عينيه نحو الطريق وشعر أن الماضي الذي ظن أنه انتهى لا يزال يخفي باباً أخيراً.

فأحياناً لا تكون أصعب الحقائق تلك التي نكتشفها عن الآخرين بل تلك التي تجبرنا على إعادة النظر في كل ما اعتقدنا أننا فهمناه.

الفصل الخامس والعشرون: من أشعل الحكاية؟

لم يستطع يوسف تجاهل الرسالة المجهولة.

كان قد اعتاد أن يتعامل مع المفاجآت بهدوء لكنه هذه المرة شعر بأن الماضي يفتح أمامه باباً لم يكن مستعداً لعبوره.

عاد إلى البيت وأعاد قراءة الكلمات

الشخص الذي بدأ كل شيء لم يكن عثمان

من يكون إذن؟

عثمان كان وراء كثير من الأحداث وكمال اعترف بدوره في إفساد علاقته بنوميديا وأخوه أقرّ بأنه أخفى عنه بعض الحقائق لكن من وضع الحجر الأول في طريق كل تلك الخيبات؟

فتح هاتفه وحاول الاتصال بالرقم مجدداً دون جدوى.

في صباح اليوم التالي قرر أن يزور عبد القادر.

كان عبد القادر من القلائل الذين بقوا إلى جانبه رغم أن يوسف اكتشف أنه لم يكن صريحاً معه في كل شيء وحين وصل إليه وجده جالساً أمام منزله يحتسي قهوته كعادته.

قال عبد القادر مازحاً

يبدو أنك لا تأتي إلا حين تحمل معك سؤالاً ثقيلاً.

أجابه يوسف هذه المرة أحمل سؤالاً قد يغيّر كل ما عرفناه.

جلس قبالته وأراه الرسالة.

قرأ عبد القادر الكلمات ثم تغيّر وجهه.

لاحظ يوسف ذلك فوراً.

هل تعرف شيئاً؟

تردد عبد القادر قليلاً ثم قال:

هناك أمر لم أخبرك به لأنني لم أكن أملك دليلاً عليه.

تكلم.

قبل سنوات وقبل أن يظهر عثمان في حياتك بهذه الصورة كان هناك شخص يتحدث عنك كثيراً في المجالس كان يقول إنك لا تعرف حقيقة ما تركه والدك وإنك قد تصبح سبباً في إعادة فتح خلاف قديم بين العائلتين.

من هو؟

أجاب عبد القادر عمّك.

ساد الصمت.

لم يكن يوسف يتوقع أن يسمع هذا الاسم.

كان عمه رجلاً قليل الظهور في حياته ولم تكن علاقتهما سيئة لكنها لم تكن قريبة أيضاً لم يكن يتصور أن يكون له دور في تلك الأحداث.

قال يوسف ولماذا لم تخبرني من قبل؟

لأنني سمعت كلاماً متفرقاً ولم أكن أعرف إن كان الأمر مجرد خلاف عائلي قديم أم أن هناك شيئاً أكبر ثم ظهر عثمان وبدأت الأمور تتعقد.

وقف يوسف واتجه نحو الشارع.

لم يكن يريد أن يتسرع في اتهام عمه فقد تعلم أخيراً أن الشك ليس دليلاً وأن كثرة الروايات لا تصنع حقيقة.

قال لعبد القادر سأذهب إليه لكنني لن أذهب لأحاكمه سأذهب لأسمع منه.

وصل يوسف إلى منزل عمه بعد الظهر.

استقبله الرجل بترحاب لكنه بدا مرتبكاً حين عرف سبب الزيارة.

جلسا في غرفة واسعة تتوسطها طاولة قديمة وعلى الجدار صورة عائلية تجمع أفراد الأسرة قبل سنوات طويلة.

قال يوسف عمي أريد أن أسألك عن الخلاف الذي حدث بين أبي وقريبه قبل سنوات.

تغيرت ملامح الرجل ثم أجاب لماذا تعود إلى هذا الموضوع الآن؟

لأنني تعبت من سماع نصف الحكايات.

تنهد عمه وأسند ظهره إلى المقعد.

والدك لم يكن ملاكاً يا يوسف لكنه لم يكن الرجل الذي وصفه البعض كانت هناك خلافات مالية وكانت هناك أخطاء من الطرفين حاولت أن أتدخل لكنني لم أستطع إصلاح ما حدث.

وهل تحدثت عني أمام الناس؟

صمت الرجل.

أعاد يوسف السؤال هل قلت إنني قد أفتح الخلاف من جديد؟

قال عمه أخيراً نعم قلت ذلك فكنت أخشى أن تدخل في نزاع لا تعرف أبعاده وأن تخسر ما تبقى من العائلة بسببه.

وهل أخبرت عثمان بما تعرفه؟

رفع عمه عينيه إليه.

عثمان سألني عن بعض التفاصيل فأجبته ولم أكن أعلم أنه سيستخدمها بهذه الطريقة.

شعر يوسف بأن أجزاء الحكاية بدأت تتجمع لكن الصورة لم تكتمل بعد.

وهل كنت تعرف أن اسمي استُخدم في تلك الورقة؟

سمعت بذلك لاحقاً لكنني لم أرَ الوثيقة الأصلية.

ثم أضاف عمه بصوت خافت

وهناك أمر آخر فالشخص الذي أخبر عثمان بتفاصيل الخلاف لم يكن أنا وحدي.

توقف يوسف عن التنفس للحظة.

من أيضاً؟

نظر عمه نحو الصورة المعلقة على الجدار ثم قال:

والدك نفسه قبل سنوات من وفاته أخبره ببعض الأمور حين كان يظنه صديقاً للعائلة.

لم يعلّق يوسف.

لقد فهم الآن أن الحكاية لم تبدأ بخيانة واحدة ولا بشخص واحد فلقد بدأت بأسرار صغيرة وبثقة وُضعت في غير موضعها وبأشخاص ظنوا أنهم يستطيعون التحكم في نتائج الكلام دون أن يتحملوا مسؤولية عواقبه.

غادر منزل عمه دون أن يتهمه بشيء.

وفي المساء عاد إلى مكتبه وأخرج الرسالة المجهولة مرة أخرى.

للمرة الأولى لم يسأل نفسه من الذي خدعني؟

بل سأل كيف تحولت حكاية عائلية قديمة إلى سلسلة من الخيبات التي أصابت كل من اقترب منها؟

كان يدرك أن عثمان لم يكن البداية وأن كمال لم يكن سوى حلقة وأن الصمت الذي مارسه أخوه لم يكن سوى محاولة فاشلة لحماية ما تبقى من العائلة.

لكن بقي سؤال واحد يطارده

من الذي كان يملك مصلحة حقيقية في أن يظل الجميع مختلفين وأن يبقى يوسف آخر من يعرف؟

وفي تلك الليلة وصلته رسالة جديدة من الرقم الغير معروف

إذا أردت أن تعرف من بدأ الحكاية فابحث في دفتر والدك الأزرق ستجد في صفحته الأخيرة اسماً لم يخطر ببالك.

نهض يوسف من مكانه.

كان يتذكر ذلك الدفتر جيداً.

لكنه لم يكن يعلم أن والده ترك في صفحته الأخيرة ما قد يغيّر نظرته إلى شخص آخر أقرب إليه مما يتصور.

الفصل السادس والعشرون: الاسم الأخير في الدفتر

لم ينتظر يوسف طلوع الصباح.

اتجه مباشرة إلى الغرفة القديمة التي كان والده يحتفظ فيها بأوراقه ودفاتره كانت الغرفة مغلقة منذ سنوات ولم يدخلها إلا مرات قليلة بعد وفاة أبيه وكلما احتاج إلى وثيقة أو غرض من الأغراض التي تركها وراءه.

فتح الخزانة الخشبية وبدأ يقلب محتوياتها.

كانت هناك ملفات قديمة وصور عائلية وبعض الرسائل التي اصفرّت أوراقها بفعل الزمن لكنه لم يجد الدفتر الأزرق.

تذكر أن أخاه هو من تولى ترتيب أغراض والده بعد وفاته فاتصل به.

أحتاج إلى دفتر أبي الأزرق.

صمت أخوه قليلاً ثم قال

لماذا تبحث عنه الآن؟

لأنني أريد أن أقرأ ما كتبه أبي بنفسه لا ما نقله الآخرون عنه.

أظن أنني أعرف مكانه.

أريد أن أراه الليلة.

لم يعترض أخوه.

بعد ساعة دخل الأخ حاملاً صندوقاً صغيراً ووضعه أمام يوسف.

أخرج منه الدفتر الأزرق ثم ناوله إياه دون كلام.

كان الغلاف مهترئاً وبعض صفحاته تحمل آثار الرطوبة قلب يوسف الصفحات واحدة تلو الأخرى، حتى وصل إلى الصفحة الأخيرة.

وجد فيها بضعة أسطر بخط والده

لقد أخطأت حين ظننت أن الصمت سيحمي الجميع كنت أعتقد أن إخفاء بعض التفاصيل سيمنع العائلة من الانقسام لكنني لم أفهم أن الحقيقة حين تُحجب تتحول إلى سلاح في يد من يعرفها.

هناك من ساعدني حين ضاقت بي الظروف وهناك من استغل ضعفي وهناك من ظن أن مصلحته أهم من رابطة الدم.

أما يوسف فلا أريده أن يرث خلافاتي ولا أن يدفع ثمن قرارات لم يكن حاضراً حين اتُّخذت.

إن كان لا بد من كشف الحقيقة فليبدأ من الاسم الذي وثقت به أكثر من الجميع.

وتحت الكلمات كان هناك اسم واحد عثمان.

رفع يوسف رأسه نحو أخيه.

إذن كان أبي يعرف أن عثمان وراء الأمر؟

أجاب أخوه

يبدو أنه كان يشك فيه لكنه لم يترك ما يثبت كل شيء.

عاد يوسف إلى الصفحة وتأمل الاسم طويلاً.

لم يكن اكتشافه مفاجئاً تماماً فقد أصبح كمال حاضراً في معظم خيوط الحكاية لكن ما أثار قلقه هو أن والده كتب اسمه في آخر صفحة ثم لم يشرح ما الذي حدث بينهما.

قال يوسف هل قرأت هذه الصفحة من قبل؟

أجابه أخوه نعم.

ولماذا لم تخبرني؟

لأنني لم أكن أعرف إن كان أبي يتحدث عن خيانة حقيقية أم عن مجرد خلاف بين رجلين ولم أرد أن أزرع في قلبك اتهاماً لا دليل عليه.

أغلق يوسف الدفتر.

لقد قضينا سنوات نؤجل الكلام خوفاً من أن نجرح بعضنا وفي النهاية جرحنا بعضنا بالصمت.

لم يرد أخوه.

في اليوم التالي قرر يوسف أن يواجه عثمان مرة أخيرة لكن هذه المرة لم يذهب إليه غاضباً ولم يحمل معه أحكاماً جاهزة.

كان يريد إجابة واحدة لماذا؟

استقبله عثمان في مكتبه وحين رأى الدفتر الأزرق بين يديه اختفت ابتسامته المعتادة.

قال يوسف أبي كتب اسمك في آخر صفحة من دفتره.

حاول كمال أن يبدو هادئاً.

كان بيني وبينه خلاف قديم وهذا لا يعني أنني مسؤول عن كل ما حدث.

لم أقل إنك مسؤول عن كل شيء أسألك عن دورك أنت.

نهض عثمان من مقعده واتجه نحو النافذة.

كنت صديقاً لوالدك وساعدته في بعض الأمور ثم اختلفنا وكل واحد منا اعتقد أن الآخر خانه.

وهل استخدمت اسمي في الوثيقة؟

استدار عثمان نحوه.

لم أوقّع مكانك إن كان هذا ما تريد سماعه.

لم أسألك إن كنت وقّعت سألتك هل استُخدم اسمي بعلمك؟

طال الصمت.

ثم قال عثمان كنت أعرف أن اسمك موجود في بعض الأوراق لكنني لم أكن أعرف كل التفاصيل.

لم يقتنع يوسف لكنه لم يجد ما يسمح له بالجزم.

وضع الدفتر فوق المكتب وقال لم آتِ لأهددك ولا لأنتقم منك أريد فقط أن تنتهي هذه الحكاية بطريقة لا تظلم أحداً ستُعرض الوثائق على من يستطيع فحصها وكل من أخطأ عليه أن يتحمل مسؤوليته.

ابتسم كمال ابتسامة باردة.

وهل تظن أنك ستجد الحقيقة كاملة في الأوراق؟

أجابه يوسف لا لكنني على الأقل لن أقبل بعد اليوم أن يصنعها الآخرون نيابة عني.

غادر المكتب.

وفي الخارج شعر للمرة الأولى أن المواجهة لم تعد تستهلكه كما كانت تفعل في الماضي.

لم يكن قد انتصر ولم يكن قد حصل على كل الإجابات لكنه توقف عن الركض خلف كل شخص يحمل رواية جديدة.

لقد أدرك أن بعض الحقائق لا تُعرف إلا بالصبر وأن العدالة لا تقوم على الشكوك مهما بدت مقنعة.

وقبل أن يصل إلى سيارته رنّ هاتفه.

كانت نوميديا.

قالت بصوت مضطرب يوسف أريد أن أخبرك بشيء عن كمال هناك أمر لم أقله لك من قبل وربما يفسر لماذا كان مصراً على إبعادنا عن بعضنا.

توقف يوسف عن الحركة.

ما الأمر؟

قالت بعد تردد كمال لم يكن يخشى أن تخسرني فقط بل كان يخشى أن تعرف حقيقة ما فعله معك قبل سنوات.

أغلق يوسف عينيه للحظة.

لقد ظن أن كمال اعترف بكل شيء.

لكنه اكتشف أن الاعترافات مثل الرسائل القديمة قد تخفي وراءها صفحات لم تُفتح بعد.

فليس كل من يعترف بالحقيقة يقولها كاملة وليس كل من يطلب الصفح قد تخلّص من خوفه من انكشاف ما تبقّى.

الفصل السابع والعشرون: اعتراف كمال الأخير

لم يكن يوسف بحاجة إلى مزيد من المفاجآت فقد ظن أنه وصل إلى نهاية الحكاية وأن ما تبقى ليس سوى ترتيب الأحداث ووضع كل شخص أمام مسؤوليته.

لكن كلمات نوميديا أعادت إليه شعوراً قديماً ذلك الشعور الذي ينتابه حين يكتشف أن ما يعرفه ليس إلا جزءاً من قصة أكبر.

قال لها ماذا فعل كمال؟

أجابت بصوت متردد لا أريد أن أتهمه بشيء قبل أن تسمع منه لكنني اكتشفت أنه لم يكتفِ بالكلام الذي قاله عنك لقد أخبرني ذات مرة أنه كان يحتفظ بنسخ من بعض مراسلاتك القديمة وأنه استخدم أجزاء منها خارج سياقها ليجعلني أصدق أنك تخفي عني أموراً.

صمت يوسف قليلاً ثم قال وهل أخبرك لماذا فعل ذلك؟

قال إنه كان يعتقد أنك تتغير وأنك أصبحت بعيداً عن أصدقائك وأنني سأكون سبباً في ابتعادك عنهم أكثر لم أصدقه حينها لكنني لم أواجهه أيضاً.

أنهى المكالمة ثم جلس داخل سيارته دون أن يشغّل المحرك.

تذكر رسائله القديمة مع كمال ومواقف كثيرة كان يظن أنها مجرد خلافات عابرة تذكر كيف كان كمال يسأله عن تفاصيل حياته ويعرف مواعيده ويتدخل أحياناً في قراراته بحجة الصداقة.

كان يؤلمه أن يكتشف أن بعض الذكريات التي احتفظ بها باعتبارها دليلاً على الوفاء ربما كانت في نظر شخص آخر فرصة لجمع المعلومات واستعمالها لاحقاً.

اتصل بكمال وطلب لقاءه.

لم يسأله كمال عن السبب وكأنه كان ينتظر هذه اللحظة منذ مدة.

التقيا في مكان هادئ بعيداً عن ضجيج المدينة.

جلس يوسف أمامه وقال دون مقدمات نوميديا أخبرتني عن المراسلات.

تنهد كمال وأشاح بوجهه.

كنت أعرف أن الأمر سيصل إليك يوماً.

إذن أنت تعترف؟

نعم استخدمت بعض الرسائل لكنني لم أزوّر كلامك.

لم أسألك إن كنت قد زوّرت الكلام سألتك لماذا أخذت كلاماً ائتمنتك عليه وجعلته وسيلة لإفساد علاقة لم تكن تخصك؟

ظل كمال صامتاً ثم قال كنت أشعر أنك تبتعد عني منذ تعرفت إلى نوميديا وأصبحت أقل حضوراً في حياتنا القديمة كنت أظن أنك ستنسى أصدقاءك وأنها ستأخذ مكاناً لم أكن مستعداً لخسارته.

ابتسم يوسف بحزن وهل كان الحل أن تجعلني أخسرها؟

لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة وقتها.

بل فكرت في نفسك فقط.

خفض كمال رأسه.

ربما.

توقف يوسف قليلاً ثم سأله وهل كان عثمان يعرف بما فعلت؟

رفع كمال عينيه بسرعة.

عثمان لم يطلب مني أن أفسد علاقتك بنوميديا.

لم أقل إنه طلب منك هل تحدثت معه عن ذلك؟

تردد كمال ثم قال نعم أخبرته أنني أريد إبعادها عنك وأنني أملك بعض الرسائل التي قد تجعلها تشك فيك شجعني على الحديث معها وقال إن الحقيقة ستظهر عاجلاً أم آجلاً.

ضحك يوسف ضحكة قصيرة خالية من الفرح.

الحقيقة! كم من الأذى ارتُكب باسمها!

ثم أضاف وهل كان يعلم أنك تستخدم رسائلي خارج سياقها؟

نعم.

وهل ساعدك ؟

لم يكتب شيئاً بيده لكنه أعطاني بعض العبارات التي كان يقول إنها ستجعلها تفهم الأمور بطريقة مختلفة.

لم يتحرك يوسف من مكانه.

كانت تلك المرة الأولى التي يسمع فيها اعترافاً واضحاً بشأن دور عثمان في علاقته بنوميديا لكنه لم ينسَ أن الاعتراف وحده لا يكفي لإثبات كل التفاصيل.

قال لماذا لم تخبرني بهذا منذ البداية ؟

أجابه كمال كنت أخشى أن أخسرك نهائياً.

نظر إليه يوسف طويلاً لقد خسرتني يوم قررت أن تستعمل ثقتي ضدّي لا يوم اكتشفت ما فعلت.

بدت الدموع في عيني كمال.

هل يمكن أن تسامحني ؟

أجابه يوسف لا أعرف لكنني أعرف أنني لن أعود إلى الصداقة التي كانت بيننا وكأن شيئاً لم يحدث أنا لا أريد الانتقام منك ولا أريد أن أكون سبباً في أذيتك لكنني لن أسمح لك بأن تكون قريباً مني بالطريقة نفسها.

نهض يوسف ثم توقف لحظة وقال كنت تستطيع أن تخبرني أنك تشعر بالغيرة أو أنك تخاف خسارة صداقتنا كان بإمكاننا أن نختلف وربما نتصالح لكنك اخترت أن تهدم حياتي بصمت ثم تسمي ذلك خوفاً عليّ.

غادر المكان تاركاً كمال وحيداً مع اعترافه.

في المساء اتصلت به نوميديا.

سألته هل تحدثت معه؟

نعم.

وماذا قال؟

قال ما كان يجب أن يقوله منذ سنوات.

سكتت قليلاً ثم قالت أحياناً أتساءل إن كنا نستطيع أن نعود إلى ما كنا عليه.

أجابها يوسف لا أظن أن العودة إلى الماضي ممكنة ولا أريد أن نعيش ونحن نحاول تقليد أشخاص لم نعدهم إن كان بيننا شيء يستحق البقاء فعلينا أن نبنيه من جديد لا أن نستعيد ما تهدم.

قالت وهل ما زلت ترى أن هناك فرصة؟

ابتسم يوسف رغم أنها لم تكن تراه.

أرى أن الفرص لا تُمنح بالكلمات بل تصنعها الأفعال.

أنهى المكالمة ثم فتح نافذته ونظر إلى السماء.

لقد عرف الآن أن كمال خذله بدافع الغيرة وأن عثمان استغل ضعفه وأن أخاه أخفى عنه الحقيقة خوفاً وأن نوميديا رحلت لأنها لم تمتلك الشجاعة لتسأله.

لكن السؤال الذي بدأ يفرض نفسه عليه لم يعد متعلقاً بهم وحدهم.

كان يسأل نفسه هل يستطيع الإنسان أن ينجو من خيباته دون أن يتحول إلى نسخة قاسية من الذين خذلوه؟

وللمرة الأولى لم يبحث عن إجابة سريعة فقد أدرك أن بعض الأسئلة لا تحتاج إلى جواب بقدر ما تحتاج إلى حياة مختلفة.

الفصل الثامن والعشرون: حين يتوقف المرء عن الانتظار

كان يوسف قد اعتاد الانتظار انتظر سنوات حتى يفهم سبب رحيل نوميديا وانتظر طويلاً حتى يعرف حقيقة خلاف والده مع قريبه وانتظر اعتذاراً من أخيه واعترافاً من كمال وإجابة من عثمان.

لكنه اكتشف أن الانتظار حين يتحول إلى أسلوب حياة يجعل الإنسان يؤجل سعادته إلى أجل لا يعرف موعده.

في صباح هادئ استيقظ مبكراً أعد قهوته وجلس قرب النافذة لم يفتح هاتفه كما اعتاد ولم يتفقد الرسائل بحثاً عن اعتذار جديد أو اعتراف متأخر.

كان يريد أن يعيش يوماً لا تتحكم فيه أحداث الأمس.

فتح دفتره القديم وكتب:

ليس كل ما نفقده يستحق أن نبحث عنه وليس كل من غادر يستحق أن ننتظره فهناك لحظة ينبغي للإنسان أن يتوقف فيها عن مطالبة الماضي بتفسير كل شيء وأن يمنح الحاضر فرصة لم يكن يمنحها له من قبل.

ثم أغلق الدفتر.

بعد أيام اتصل به أخوه.

هذه المرة لم يكن الاتصال متعلقاً بوثيقة أو رسالة أو خلاف قديم بل دعاه إلى تناول الغداء في بيت العائلة.

ذهب يوسف.

استقبله أخوه بابتسامة خجولة وكانت المائدة قد أُعدّت كما كان يفعل والدهما في المناسبات العائلية.

جلسا معاً وتحدثا عن أمور بسيطة عن العمل وعن بعض الأقارب وعن ذكريات الطفولة.

لم يكن الحديث مثالياً ولم تختفِ آثار الماضي لكن شيئاً من الدفء عاد إلى المكان.

قال أخوه فجأة اشتقت إلى أيامنا القديمة.

أجابه يوسف وأنا أيضاً لكنني لا أريد أن نعود إليها بالكذب نفسه الذي فرّقنا.

هز أخوه رأسه موافقاً لن أخفي عنك شيئاً بعد اليوم.

لم يقل يوسف إنه صدّقه تماماً لكنه شعر أن أخاه بدأ يفهم أن الثقة لا تُطلب بل تُبنى.

أما نوميديا فقد ظلت حاضرة في بعض تفاصيل يومه.

لم يتحدثا كثيراً لكن رسائلها أصبحت أكثر هدوءاً وأقل استعجالاً لم تعد تطلب منه إجابة عن مستقبلهما ولم يعد هو يبحث في كلماتها عن وعود لا تستطيع تقديمها.

وفي إحدى الأمسيات التقيا مجدداً.

قالت له

يبدو أنك أصبحت أكثر هدوءاً.

ابتسم ربما لأنني توقفت عن انتظار أن يعتذر الجميع حتى أستطيع أن أعيش.

قالت وهل سامحتهم؟

أجاب لا أعرف إن كنت سامحتهم جميعاً لكنني لم أعد أريد أن يكون غضبي هو الشيء الذي يربطني بهم.

نظرت إليه طويلاً ثم قالت أتمنى ألا تكون قد فقدت قدرتك على الحب بسبب ما حدث.

أجابها الإنسان لا يفقد قدرته على الحب لمجرد أنه خُذل لكنه يتعلم أن الحب وحده لا يكفي وفقد نحتاج إلى الصدق والاحترام والشجاعة حين يصبح الوقوف إلى جانب من نحب أمراً صعباً.

لم تجبه.

لكنها فهمت أن يوسف لم يعد يبحث عن علاقة تعوضه عما خسره بل عن علاقة لا تجعله يخسر نفسه مرة أخرى.

في نهاية الأسبوع قرر يوسف أن يزور قبر والده.

وقف أمامه طويلاً ثم وضع يده على شاهد القبر وقال بصوت خافت:

لم أفهمك تماماً يا أبي وربما لن أفعل عرفت أنك أخطأت وعرفت أنك حاولت إصلاح بعض ما حدث لكنني لن أحمل أخطاءك إلى ما تبقى من حياتي سأحتفظ بما كان جميلاً فيك وأتعلم مما لم يكن كذلك.

غادر المقبرة دون أن يلتفت.

كان يشعر أن شيئاً ثقيلاً بدأ يغادر صدره لا لأن كل الأسئلة وجدت إجاباتها بل لأنه لم يعد يشترط على الحياة أن تجيبه عن كل شيء حتى يواصل طريقه.

وفي المساء عاد إلى دفتره وكتب

أكثر ما يتعب الإنسان ليس الحقيقة وحدها بل سنوات عمره التي يقضيها هارباً منها أو منتظراً أن يعترف بها الآخرون وحين تنكشف يكتشف أن عليه أن يختار إما أن يبقى أسيراً لما حدث وإما أن يجعل مما حدث سبباً ليصبح أكثر وعياً لا أكثر قسوة.

ثم أضاف تحتها لقد تعبت من البحث عمّن أفسدوا حياتي وبدأت أخيراً أبحث عمّا بقي فيها ويستحق أن أعيشه.

أغلق الدفتر وأطفأ المصباح.

ولم يكن يعلم أن الأيام المقبلة ستضعه أمام اختبار مختلف اختبار لن يتعلق بالماضي هذه المرة بل بقرار جديد سيحدد ما إذا كان قد تعلّم فعلاً من كل ما مرّ به.

فليس النضج أن نعرف لماذا خذلنا الآخرون فحسب بل أن نعرف كيف نواصل الحياة دون أن نسمح لخيباتهم بأن تحدد من نكون.

الفصل التاسع والعشرون: الحياة التي لم ينتبه إليها

لم يكن يوسف يدرك أن انشغاله بالماضي قد سرق منه أشياء كثيرة لم ينتبه إلى غيابها إلا بعد أن هدأت العاصفة.

كان يمرّ كل يوم بجانب المخبزة القديمة دون أن يلاحظ أن صاحبها قد شاخ وأن الأشجار التي كانت تملأ الشارع قد قُطعت وأن وجوه الأطفال الذين كانوا يلعبون أمام منزله أصبحت وجوهاً شابة تحمل همومها الخاصة.

كان يظن أنه يعيش بينما كان في الحقيقة يعيد الأحداث نفسها داخل رأسه يبحث عن كلمة قيلت أو موقف أُسيء فهمه أو لحظة كان يمكن أن يتصرف فيها بطريقة مختلفة.

وفي صباح أحد الأيام تلقى اتصالاً من صديق قديم يُدعى فيصل لم يره منذ سنوات.

قال فيصل يوسف هل ما زلت تكتب؟

ابتسم يوسف.

أحاول لكن الحياة تشغلنا أحياناً عن الأشياء التي نحبها.

ضحك فيصل وقال بل نحن الذين نسمح لها بأن تشغلنا أريد أن أراك لدي فكرة أحتاج فيها إلى رأيك.

اتفقا على اللقاء في المساء.

كان فيصل مختلفاً عن بقية الأشخاص الذين عادوا إلى حياة يوسف لم يحمل معه اعتذاراً عن الماضي ولم يطلب منه أن يفتح جرحاً قديماً ولم يأتِ ليبرر موقفاً اتخذه قبل سنوات.

جاء ببساطة كما يأتي الأصدقاء حين لا تكون بينهم حسابات مؤجلة.

جلسا في مقهى صغير وتحدثا طويلاً.

أخبره فيصل أنه يفكر في إطلاق مبادرة لمساعدة الشباب المهتمين بالكتابة من خلال لقاءات أدبية بسيطة يتبادلون فيها النصوص والأفكار والتجارب.

قال يوسف فكرة جميلة لكن هل تعتقد أن الناس ما زالوا يجدون وقتاً للقراءة وسط كل هذه الانشغالات؟

أجابه فيصل الناس لا يتخلون عن القراءة لأنهم لا يحبونها دائماً بل لأنهم أحياناً لا يجدون من يذكّرهم بأنها تمنحهم مساحة للتفكير في أنفسهم.

ظل يوسف يفكر في العبارة.

لقد أمضى أشهراً يحاول فهم الآخرين لكنه نسي أن الكتابة كانت دائماً طريقته في فهم الحياة.

قال فيصل أريدك أن تكون معنا أعرف أنك تملك الكثير مما يمكن أن تقدمه.

ابتسم يوسف ثم قال سأفكر في الأمر.

لكن الحقيقة أنه كان قد اتخذ قراره في داخله.

في الأيام التالية عاد يوسف إلى الكتابة.

لم يكتب عن عثمان ولا عن كمال ولا عن الرسائل التي كشفت أسرار عائلته كتب عن الإنسان حين يفقد ثقته وعن الخوف الذي يجعلنا نؤجل قراراتنا وعن أولئك الذين يبتسمون أمام الناس بينما يخوضون معارك لا يعرفها أحد.

كان يكتب دون أن يحاول إثبات شيء لأي شخص.

وذات مساء وصلته رسالة من نوميديا

أشعر أنك أصبحت بعيداً عني.

قرأها بهدوء ثم أجاب لست بعيداً لكنني أحاول ألا أجعل أي علاقة محور حياتي كله لقد تعلمت أن أحب دون أن أهمل نفسي وأن أقترب دون أن أفقد قدرتي على الوقوف وحدي.

لم تتأخر في الرد

ربما هذا ما كان ينقصنا منذ البداية.

ابتسم يوسف وأعاد الهاتف إلى الطاولة.

لم يكن يعرف إلى أين ستصل علاقتهما لكنه لم يعد يخشى النهاية كما كان يخشاها من قبل.

بعد أسبوع انعقد أول لقاء أدبي في قاعة صغيرة.

حضر عدد من الشباب والشابات بعضهم جاء بدافع الفضول وبعضهم حمل دفاتر مليئة بالنصوص التي لم يجرؤ على مشاركتها مع أحد.

وقف يوسف أمام الحاضرين ولم يكن قد أعدّ خطاباً طويلاً.

قال نحن هنا لأن لكل واحد منا حكاية ولأن بعض الحكايات لا تجد طريقها إلى النور إلا حين نمتلك الشجاعة لنكتبها لا أعدكم بأن الكتابة ستغير العالم لكنها قد تغير الطريقة التي ننظر بها إليه وقد تكون الكلمات أحياناً بداية نجاة إنسان لم يجد من يسمعه.

ثم فتح دفتره وقرأ مقطعاً قصيراً لا تجعلوا خيباتكم آخر ما تكتبونه عن الحياة فالإنسان ليس مجموع ما حدث له وليس تعريفاً للأشخاص الذين خذلوه نحن أيضاً ما اخترناه بعد الألم وما حافظنا عليه رغم الخسارة وما استطعنا أن نبدأه حين ظننا أن كل البدايات قد انتهت.

ساد الصمت للحظات ثم ارتفعت التصفيقات.

لكن يوسف لم يكن ينظر إلى الحاضرين بقدر ما كان ينظر إلى دفتره.

لقد عاد إلى الشيء الذي أحبه واكتشف أن الحياة لم تكن تنتظره حتى ينتهي من حلّ ألغاز الماضي بل كانت تمرّ أمامه طوال الوقت.

وفي نهاية اللقاء اقترب منه شاب يحمل دفتراً صغيراً وقال أستاذ هل تسمح لي أن أقرأ عليك نصاً كتبته؟

ابتسم يوسف وأشار إليه بالجلوس.

بدأ الشاب القراءة بصوت مرتبك وكان يتوقف أحياناً بحثاً عن الكلمات.

استمع يوسف إليه باهتمام ثم قال له

لا تخجل من كلماتك الأولى كل كاتب بدأ بنص لم يكن راضياً عنه لكن الفرق بين من يواصل ومن يتوقف هو أن الأول لم يسمح لخوفه من النقص أن يسرق منه فرصة التحسن.

خرج يوسف من القاعة في تلك الليلة وهو يشعر أن شيئاً جميلاً قد عاد إلى حياته.

لم تعد الحقيقة عدواً يطارده ولم يعد الماضي سجناً يقيم فيه.

لقد بدأ يفهم أن الحياة أوسع من خيباتنا وأن الإنسان قد يخسر أشخاصاً كثيرين لكنه لا ينبغي أن يخسر نفسه معهم.

فكم من إنسان أضاع سنواته وهو ينتظر أن تعود إليه الحياة كما كانت بينما كانت الحياة تمنحه في كل صباح فرصة ليصنع منها شيئاً جديداً.

الفصل الثلاثون: القرار الأخير

لم يكن يوسف يعلم أن أكثر القرارات صعوبة ليست تلك التي نتخذها حين نكون في حيرة من أمرنا بل تلك التي نتخذها بعد أن نعرف كل شيء.

لقد انكشفت أمامه وجوه كثيرة وسقطت من ذاكرته صور كان يظنها ثابتة وتعلّم أن المحبة لا تمنح أصحابها حق إخفاء الحقيقة وأن الصداقة لا تبرر الخيانة وأن القرابة لا تجعل الخطأ صواباً.

ومع ذلك لم يكن يريد أن يقضي ما تبقى من عمره في محاكمة الماضي فكان عليه أن يقرر ماذا سيفعل بكل ما عرفه.

في صباح يوم الجمعة تلقى اتصالاً من المحامي عبد الله الذي قام بمراجعة الوثائق القديمة المتعلقة بالخلاف المالي.

قال له المحامي عبد الله: يوسف انتهيت من دراسة الأوراق التي أحضرتها هناك أمور تستحق المتابعة خصوصاً ما يتعلق باستعمال اسمك في بعض المستندات لكن لا يمكننا إصدار حكم نهائي اعتماداً على النسخ المتوفرة وحدها نحتاج إلى الوثائق الأصلية وربما إلى شهادات بعض الأطراف.

أجابه يوسف أريد أن أعرف حقي لكنني لا أريد أن أظلم أحداً في الطريق إليه.

قال المحامي عبد الله وهذا هو التصرف الصحيح دع الأدلة تتحدث ولا تجعل الخلاف الشخصي يقودك إلى نتيجة قانونية مسبقة.

أنهى يوسف المكالمة وهو يشعر براحة لم يعرفها منذ زمن.

لقد قرر أن يسلك الطريق الصحيح حتى لو كان طويلاً وأن يترك لكل شخص مسؤولية ما فعله دون أن يتحول هو إلى نسخة أخرى ممن آذوه.

في المساء زاره أخوه جلسا في الشرفة وتبادلا الحديث عن أمور كثيرة وبعد صمت قصير قال الأخ

تحدثت مع عثمان وأخبرته أنني لن أسمح باستمرار هذا الخلاف دون أن تظهر الحقيقة.

نظر إليه يوسف وقال لا أريد منك أن تدخل في حرب مع أحد أريد فقط أن تتوقف عن إخفاء ما تعرفه.

لقد أخطأت في حقك نعم أخطأت لكنني لا أريد أن نبقى أسرى لهذا الخطأ إلى الأبد.

مدّ أخوه يده نحوه فتردد يوسف لحظة ثم صافحه.

لم تكن مصافحة تعني أن كل شيء عاد كما كان لكنها كانت بداية مختلفة بداية لا تقوم على النسيان بل على الاعتراف.

أما كمال فقد أرسل إليه رسالة طويلة يطلب فيها لقاءه.

لم يقرأ يوسف الرسالة كاملة في البداية بل اكتفى بالنظر إلى اسم المرسل ثم أعاد الهاتف إلى جيبه.

بعد ساعات فتحها وقرأ أعرف أنني لا أملك الحق في طلب الصفح لكنني أريد أن أقول لك إنني أدركت متأخراً حجم ما فعلته فقد كنت أظن أنني أحافظ على مكانتي في حياتك ففعلت ما جعلني أفقد تلك المكانة إلى الأبد لا أطلب منك أن تعود كما كنت لكنني أتمنى ألا تظن أن صداقتنا كانت كلها كذباً.

بقي يوسف يفكر في الرسالة.

ثم أجاب لا أريد أن أحكم على كل سنوات صداقتنا من خلال أسوأ ما فعلته لكنني أيضاً لن أسمح لذكرياتنا الجميلة أن تبرر ما حدث أتمنى أن تتعلم من خطئك كما أحاول أنا أن أتعلم من ألمي ولم يضف شيئاً آخر.

وفي اليوم التالي التقى نوميديا.

كانت المرة الأولى التي يجلسان فيها دون أن يكون الماضي هو الموضوع الوحيد بينهما.

تحدثا عن الكتابة وعن اللقاءات الأدبية وعن أحلام تأخرت كثيراً ثم قالت له

يوسف هل تعتقد أننا نستطيع أن نبدأ من جديد؟

نظر إليها ولم يستعجل الإجابة.

أعتقد أن الإنسان يستطيع أن يبدأ من جديد لكن ليس بالضرورة مع الأشخاص أنفسهم ولا بالطريقة نفسها.

ابتسمت بحزن أفهم ما تقصده.

ثم أضاف

لا أريد أن أظلمك بسبب ما حدث ولا أن أظلم نفسي بمحاولة استعادة شيء لم يعد كما كان فإن أردنا أن نمنح هذه العلاقة فرصة فعلينا أن نكون صادقين منذ البداية حتى عندما تكون الحقيقة غير مريحة.

قالت وأنا مستعدة لذلك.

لم يعدها بشيء لكنه لم يغلق الباب أيضاً.

كان قد تعلم أخيراً أن بعض الأمور تحتاج إلى وقت وأن القرارات العاطفية لا ينبغي أن تُتخذ تحت ضغط الندم أو الخوف من الوحدة.

عاد يوسف إلى مكتبه في تلك الليلة.

أخرج دفتره وكتب عنواناً جديداً "الذين أتعبتهم الحقيقة"

ظل ينظر إلى العنوان طويلاً.

لقد أدرك أن حكايته لم تكن حكايته وحده فهناك من أتعبتهم حقيقة عائلية وهناك من أتعبتهم خيانة صديق وهناك من اكتشفوا متأخرين أن الأشخاص الذين وثقوا بهم لم يكونوا كما تخيلوا.

وهناك أيضاً من أتعبتهم الحقيقة لأنهم كانوا شركاء في إخفائها ثم اضطروا يوماً إلى مواجهة أنفسهم.

كتب في الصفحة الأولى ليس كل من عرف الحقيقة نجا وليس كل من جهلها عاش مطمئناً فبعض الحقائق تأتي متأخرة وبعضها يأتي قاسياً وبعضها لا يترك لنا سوى فرصة واحدة أن نقرر ماذا سنفعل بعد معرفتها.

لقد أتعبتنا الحقيقة لا لأنها قاسية دائماً بل لأننا أمضينا وقتاً طويلاً نبحث عنها في عيون الآخرين بينما كان علينا أن نمتلك الشجاعة لنواجهها في أنفسنا أولاً.

وهكذا فهمت أن النجاة ليست في أن نعرف من خذلنا فحسب بل في ألا نسمح للخذلان بأن يسلبنا إنسانيتنا.

توقف عن الكتابة وأغلق الدفتر بهدوء.

لم تنتهِ كل الخلافات ولم تعد كل العلاقات ولم يحصل على كل ما كان يعتقد أنه حقه.

لكنه لم يعد ينتظر اعتذاراً حتى يبتسم ولا اعترافاً حتى ينام ولا عودة أحد حتى يشعر بأن حياته تستحق أن تُعاش فلقد اختار أن يمضي.

وفي صباح اليوم التالي خرج إلى الشارع وكانت الشمس تشرق على مدينة اعتاد أن يراها بعين الحزن.

هذه المرة رآها مختلفة أو ربما كان هو الذي أصبح مختلفاً.

فالحقيقة قد تتعبنا وقد تسلب منا أشخاصاً وأوهاماً وأعماراً لكنها تمنحنا في المقابل فرصة نادرة أن نعيش بقية حياتنا دون أن نكذب على أنفسنا.

الفصل الحادي والثلاثون: ما بعد الحقيقة

كان يوسف يعتقد أن معرفة الحقيقة هي نهاية المعاناة وأن الإنسان حين يكتشف أسباب خيباته يستطيع أن يطوي صفحات الماضي ويمضي دون أن يلتفت خلفه لكنه اكتشف أن الأمر ليس بهذه البساطة.

فالحقيقة لا تنهي الألم دائماً بل قد تبدأ بعدها مرحلة أصعب مرحلة إعادة بناء الثقة والتصالح مع الذاكرة وتعلّم العيش دون أن نظل أسرى لما حدث.

مرت أسابيع منذ آخر مواجهة مع عثمان وبدأت الأمور تأخذ طريقها القانوني بهدوء لم تعد الاتصالات المجهولة تشغله ولم يعد يفتش في كل كلمة يسمعها عن مؤامرة جديدة.

كان قد قرر أن يترك الوثائق للجهات المختصة وأن يتوقف عن لعب دور المحقق في حياة الآخرين لكنه لم يكن قد تصالح تماماً مع نفسه.

في إحدى الأمسيات تلقى دعوة لحضور لقاء أدبي في المدينة كان موضوع اللقاء "الإنسان وأسئلة الحقيقة".

لم يتردد في قبول الدعوة.

وقف أمام الحاضرين وتأمل الوجوه التي تنتظر منه أن يبدأ حديثه ثم قال نعيش في زمن أصبح فيه الجميع يتحدثون عن الحقيقة لكن القليلين فقط مستعدون لتحمل مسؤوليتها فنطالب الآخرين بالصدق ثم نخفي عنهم ما نعتقد أنه قد يؤلمهم نرفض الخيانة لكننا أحياناً نخون ثقة من نحب بحجة حمايتهم نطلب الوضوح ثم نختار الصمت عندما تصبح الحقيقة ضد مصالحنا.

توقف قليلاً ثم تابع المشكلة ليست دائماً في أننا لا نعرف الحقيقة بل في أننا لا نريد دفع ثمن معرفتها فالحقيقة قد تفرق بين أخوين وقد تنهي صداقة وقد تهدم صورة جميلة احتفظنا بها سنوات ومع ذلك يبقى الجهل بها أكثر قسوة حين نكتشف أننا بنينا حياتنا على وهم.

ساد الصمت في القاعة.

ثم سأله أحد الحاضرين

وهل ترى أن قول الحقيقة واجب في جميع الظروف؟

أجاب يوسف ليس كل ما نعرفه يجب أن نقوله بالطريقة نفسها لكن لا ينبغي أن نصنع من الصمت وسيلة لخداع الآخرين فهناك فرق كبير بين أن تختار الوقت المناسب للكلام وأن تحرم إنساناً من حقه في المعرفة.

صفق الحاضرون لكن يوسف لم يشعر أنه ألقى خطاباً ناجحاً بقدر ما شعر أنه تحدث أخيراً عن شيء عاشه بكل تفاصيله.

بعد انتهاء اللقاء اقترب منه رجل مسنّ لم يكن يعرفه.

قال له أعجبني حديثك لكنني أريد أن أضيف شيئاً.

ابتسم يوسف تفضل.

قال الرجل لقد تحدثت عن الذين أخفوا الحقيقة لكن هل فكرت يوماً في الذين عرفوها ولم يستطيعوا مواجهتها؟ ليس كل صامت خائناً فبعض الناس يخافون وبعضهم يضعفون وبعضهم يحتاجون إلى سنوات حتى يعترفوا لأنفسهم بما حدث.

تأمل يوسف كلامه ثم قال ربما كنت قاسياً في أحكامي أحياناً.

أجابه الرجل لا بأس أن نغضب ممن آذانا لكن لا تجعل غضبك يمنعك من فهم ضعف البشر افهمهم دون أن تبرر أخطاءهم.

صافحه الرجل وغادر.

ظل يوسف يتابعه بعينيه حتى اختفى بين الحاضرين.

كانت جملة واحدة كافية لتضيف إلى فهمه للحياة زاوية جديدة.

في طريق عودته اتصلت به نوميديا.

قالت كنت في اللقاء اليوم واستمعت إلى حديثك.

تفاجأ يوسف لم أرك.

جلست في الخلف لم أرد أن أشتت انتباهك.

صمتت قليلاً ثم قالت شعرت أنك تتحدث عن نفسك أكثر مما تتحدث عن الحقيقة.

ابتسم ربما لأنني لم أعد أستطيع الفصل بين ما أكتب وما عشته.

قالت هل يمكن أن نلتقي غداً؟

نعم يمكننا ذلك.

ثم أضاف بعد لحظة لكنني أريد أن نتحدث هذه المرة عن المستقبل لا أن نقضي اللقاء كله في محاكمة الماضي.

أجابته هذا ما أريده أيضاً.

أنهى المكالمة وأكمل طريقه.

كان يشعر أن الحياة تمنحه فرصة جديدة لكنه لم يعد يتعامل مع الفرص كما كان يفعل سابقاً لم يعد يتشبث بها خوفاً من فقدانها بل أصبح يمنحها حقها من الوقت والتأمل.

عندما وصل إلى منزله وجد ظرفاً صغيراً عند الباب.

لم يكن عليه اسم المرسل.

فتحه فوجد بداخله ورقة تحمل سطراً واحداً

هناك حقيقة أخيرة تخص والدك لكن هذه المرة لن تأتيك من الأحياء.

قرأ العبارة أكثر من مرة.

ثم قلب الورقة فوجد في ظهرها عنوان مقبرة قديمة واسم رجل لم يسمع به من قبل.

جلس يوسف على أقرب مقعد.

لقد ظن أنه أغلق ملف الماضي لكنه أدرك أن هناك شاهداً آخر لم يتحدث بعد وأن ما تركه والده خلفه ربما كان أكبر مما تخيل غير أنه لم يشعر بالخوف هذه المرة.

فقد أصبح يعرف أن الحقيقة ومهما كانت مؤلمة لا ينبغي أن تدفع الإنسان إلى التخلي عن عقله أو إنسانيته.

وضع الورقة داخل الدفتر ثم كتب تحتها

لن أبحث عن الحقيقة لأعاقب أحداً بل لأفهم ما حدث وأمنع الماضي من أن يقرر نيابة عن مستقبلي فأحياناً لا تكون الشجاعة في مواجهة الحقيقة بل في القدرة على مواصلة الحياة بعد أن نعرفها.

الفصل الثاني والثلاثون: الشاهد الذي رحل

لم يستطع يوسف أن يتجاهل العنوان المكتوب على الورقة.

كان اسم الرجل غريباً عنه لكن شيئاً في العبارة جعله يشعر بأن الأمر يتجاوز مجرد رسالة مجهولة فمن الذي يملك مصلحة في إعادته إلى الماضي بعد كل ما بذله ليخرج منه؟

أخذ الورقة ووضعها في جيبه ثم قرر أن يبدأ بالبحث عن صاحب الاسم.

في صباح اليوم التالي ذهب إلى المقبرة القديمة.

كانت السماء ملبدة بالغيوم والهواء بارداً على غير العادة سار بين القبور يقرأ الأسماء المنقوشة على الشواهد حتى وصل إلى القبر الذي يحمل الاسم نفسه.

رؤوف بن محمد .

وقف يوسف أمام القبر ثم أخرج هاتفه والتقط صورة للاسم والتاريخ لم يكن يعرف الرجل ولم يكن يعرف ما الذي يمكن أن يربطه بوالده.

وبينما كان يستعد للمغادرة اقترب منه حارس المقبرة رجل مسنّ يحمل عصاً خشبية.

سأله هل تبحث عن أحد يا بني؟

أجابه يوسف أبحث عن رجل اسمه رؤوف بن محمد هل تعرفه؟

تأمل الحارس القبر ثم قال أعرفه كان رجلاً قليل الكلام لكنه كان يعرف الكثير عن عائلات هذه المنطقة وكان يأتي إلى هنا أحياناً قبل وفاته ويجلس طويلاً قرب قبر آخر.

— قبر من؟

أشار الحارس إلى الجهة المقابلة.

قبر والدك.

شعر يوسف بأن قلبه تسارع

هل كان يزور أبي؟

نعم وكان يترك أحياناً ظرفاً صغيراً عند شاهد القبر ثم ينصرف.

لم يستطع يوسف إخفاء دهشته.

وهل تعرف ماذا كان في تلك الأظرف؟

هز الحارس رأسه.

لا أعرف لكنني أتذكر أنه قال لي ذات مرة سيأتي يوم يسأل فيه ابنه عن كل ما لم نستطع قوله.

ظل يوسف واقفاً دون كلام.

لقد وجد الشاهد الذي رحل لكنه لم يجد بعد ما تركه وراءه.

عاد إلى قبر والده وجثا قليلاً أمامه.

لم يجد أي ظرف ولا أي أثر لرسالة قديمة لكنه لاحظ شيئاً غريباً في الجانب الخلفي من الشاهد علامة صغيرة محفورة تشبه حرفاً أول من اسم عائلته.

التقط صورة لها ثم اتصل بأخيه.

هل تعرف رجلاً اسمه رؤوف بن محمد؟

ساد الصمت في الطرف الآخر.

ثم قال أخوه نعم أعرفه كان صديقاً قديماً لأبي.

ولماذا لم تخبرني عنه؟

تنهد أخوه لأن علاقته بأبي انتهت بخلاف كبير ثم تصالحا قبل وفاة أبي بفترة قصيرة.

وهل تعرف ما كان بينهما؟

لا أعرف التفاصيل كلها لكنني أذكر أن أبي قال لي مرة إن رؤوف كان الوحيد الذي يعرف حقيقة ما حدث في بداية الخلاف المالي.

شعر يوسف أن دائرة الأحداث تعود إلى نقطة البداية.

سأله هل ترك أبي شيئاً عندك يتعلق به؟

أجاب أخوه بعد تردد هناك صندوق صغير لم أفتحه منذ سنوات أظن أن فيه بعض أوراقه.

أريد أن أراه.

في المساء اجتمع الأخوان في بيت العائلة.

أخرج الأخ صندوقاً خشبياً صغيراً من خزانة قديمة ووضعه أمام يوسف.

كان الصندوق مغلقاً بقفل صدئ لكن المفتاح كان مثبتاً أسفله بشريط قماشي.

فتحه يوسف.

وجد بداخله صوراً قديمة ورسائل متبادلة ووثيقة تحمل توقيع والده إضافة إلى ظرف أبيض كُتب عليه إلى يوسف إن جاء يوم وأراد أن يعرف كيف بدأت الحكاية.

توقف يوسف عن الحركة.

لم يفتح الظرف مباشرة بل نظر إلى أخيه.

قال الأخ لم أكن أعرف أن هذا الظرف موجود.

أخرج يوسف الرسالة وفتحها.

كانت بخط والده يا بني قد تصل إليك هذه الرسالة بعد أن أكون قد غادرت الدنيا وقد تكون قد سمعت عني ما لا يرضيك لا أطلب منك أن تدافع عني ولا أن تصدقني لمجرد أنني والدك.

لكنني أريدك أن تعرف أن بداية خلافنا لم تكن المال وحده لقد وثقت برجل لم يكن يستحق كل تلك الثقة ثم أخطأت حين ظننت أن الاعتراف بالخطأ سيهدم ما بقي من العائلة.

رؤوف كان شاهداً على اتفاق بيني وبين عثمان وقد عرف منذ البداية أن بعض الأوراق لم تكن تعكس حقيقة ما اتفقنا عليه لكنه اختار الصمت ثم حاول إصلاح الأمر بعد سنوات.

إن وصلت إليك هذه الرسالة فاعلم أنني لا أريد منك أن تنتقم لي أو أن تبرئني أريدك فقط ألا تكرر أخطائي وألا تسمح لأحد أن يستخدم اسمك أو ثقتك ليصنع من حياتك حكاية لا تشبهك "والدك"

قرأ يوسف الرسالة بصمت.

ثم قال أخوه يبدو أن أبي كان يعرف أن كل شيء قد ينكشف يوماً.

أجابه يوسف نعم لكنه لم يعرف كيف يواجهه في حياته.

أعاد الرسالة إلى الظرف ووضعها داخل الصندوق.

لم تكن هناك إدانة نهائية لعثمان ولا تبرئة كاملة لوالده، لكن الصورة أصبحت أكثر وضوحاً خلاف قديم واتفاق لم تُحفظ تفاصيله وثقة أسيء استخدامها وصمت امتد حتى صار إرثاً ثقيلاً على الأبناء.

وقبل أن يغادر لاحظ يوسف ورقة صغيرة في قاع الصندوق.

كانت تحمل عنواناً ورقم هاتف قديم وتحتها عبارة بخط والده "إن أردت أن تعرف ما لم أستطع قوله فابحث عن رؤوف قبل أن يفوت الأوان".

ابتسم يوسف بمرارة.

لقد فات الأوان بالفعل لكن الرجل ترك وراءه أثراً قاد إلى رسالة أخرى.

رفع عينيه نحو أخيه وقال أظن أنني فهمت الآن لماذا ظل أبي صامتاً.

سأله أخوه ولماذا؟

أجاب يوسف لأنه كان يخشى أن تكشف الحقيقة أنه لم يكن ضحية وحده وأنه كان شريكاً في بعض ما حدث ولو بالصمت أو بسوء التقدير.

لم يعترض أخوه.

ثم أضاف يوسف لكنني لن أحاكمه ولن أبرئه دون دليل سأقبل أنه كان إنساناً أصاب وأخطأ كما نفعل جميعاً.

خرج من البيت والرسالة في يده.

كان يشعر أن الرحلة اقتربت من نهايتها لكن بقيت أمامه وثيقة واحدة تحتاج إلى فحص وحقيقة واحدة تحتاج إلى مواجهة أخيرة.

وفي الطريق وصلته رسالة من رقم مجهول لقد وجدت رسالة والدك لكنك لم تجد الوثيقة التي تثبت من استفاد فعلاً من ذلك الاتفاق اسأل عثمان عن الشريك الذي لم يذكر اسمه قط.

توقف يوسف.

هذه المرة لم يشعر بالفضول وحده بل شعر بأن هناك من لا يزال يحاول توجيه خطواته.

أعاد قراءة الرسالة ثم أغلق هاتفه.

وقال لنفسه لن أسمح بعد اليوم لرسالة مجهولة أن تقودني ولا لاتهام بلا دليل أن يحدد موقفي سأبحث لكنني لن أصدق إلا ما تثبته الوقائع.

فالحقيقة لا تحتاج إلى مزيد من الظنون كي تظهر بل تحتاج إلى عقل لا يستعجل الحكم وقلب لا يسمح للألم بأن يعميه.

الفصل الثالث والثلاثون: الشريك الخفي

لم ينم يوسف تلك الليلة.

كانت رسالة الرقم المجهول تتردد في ذهنه لا لأنها حملت إليه حقيقة جديدة بل لأنها أعادت فتح باب ظنّ أنه أغلقه منذ زمن.

اسأل عثمان عن الشريك الذي لم يذكر اسمه قط.

لم يكن يوسف يحب الألغاز فقد قضى سنوات طويلة يحاول فكّ ألغاز صنعها الآخرون حتى أصبح يشكّ في كل كلمة ويتأمل خلف كل موقف احتمالاً آخر.

جلس أمامه أخوه وقد لاحظ شروده.

قال يوسف هل تعرف شيئاً عن شريك كان يعمل مع أبي وعثمان؟

تغيّر وجه أخيه قليلاً ثم أجاب أتذكر اسماً كان يتردد في تلك الفترة... رشيد كان يتعامل معهما في بعض المعاملات التجارية لكنني لا أعرف طبيعة الاتفاق بينهما.

ولماذا لم تذكره من قبل؟

تنهد أخوه وقال لأنني لم أكن أراه مهماً وربما لأنني اعتدت أن أترك الماضي حيث وجدته مدفوناً تحت الصمت.

ابتسم يوسف ابتسامة خفيفة المشكلة أن الماضي لا يبقى مدفوناً دائماً أحياناً يخرج إلينا في صورة ورقة أو رسالة أو رجل يقرر أخيراً أن يتكلم.

في اليوم التالي اتصل يوسف بعثمان وطلب لقاءه.

لم يبدُ عثمان متفاجئاً بل وافق بسرعة وكأنّه كان ينتظر هذه المكالمة منذ مدة.

التقيا في المقهى القديم الذي اعتادا الجلوس فيه قبل سنوات كان المكان كما هو تقريباً الطاولات ذاتها والرائحة ذاتها وحتى الساعة المعلقة على الجدار ما زالت متأخرة بضع دقائق.

قال يوسف دون مقدمات من هو صالح؟

رفع عثمان عينيه إليه ثم وضع فنجانه على الطاولة.

من أخبرك بهذا الاسم؟

أجبني فقط.

سكت عثمان لحظة ثم قال رشيد كان شريكاً في بعض الأعمال لكنه لم يكن طرفاً في كل ما حدث.

هل كان حاضراً يوم الاتفاق الذي شهده رؤوف؟

نعم كان حاضراً.

وهل ورد اسمه في الوثيقة؟

تجنب عثمان النظر إليه.

لا.

لماذا؟

أجاب بعد صمت لأن الاتفاق كان بيني وبين والدك أما رشيد فكان ممولاً للعمل ولم يكن من المفترض أن يظهر اسمه في الوثيقة الأساسية.

شعر يوسف أن قطعة من الصورة بدأت تستقر في مكانها لكنه لم يستعجل الحكم.

وهل استفاد رشيد من ذلك الاتفاق؟

قال عثمان استفاد كما استفدنا جميعاً في البداية لكن الأمور لم تسر كما خُطط لها حدث خلاف حول الحسابات وكل واحد منا كان يرى أنه صاحب الحق.

وأين ذهب رشيد؟

غادر المنطقة منذ سنوات ثم انقطعت أخباره عني.

نظر يوسف إليه طويلاً ثم سأله وهل كان أبي يعلم أن اسمه لم يظهر في الوثيقة؟

أطرق عثمان رأسه.

كان يعلم بوجوده لكنه لم يكن يعلم بكل التفاصيل المالية التي جرت لاحقاً.

لم يكن هذا الاعتراف كافياً لكنه كان أول كلام يسمعه يوسف من عثمان لا يتضمن إنكاراً كاملاً أو اتهاماً مباشراً.

قال يوسف لن أتهمك بما لم تثبته الوثائق ولن أبرئك لمجرد أنك تحدثت اليوم أريد فقط أن أعرف ما حدث وأن أفهم لماذا تحمل أبي وحده تبعات خلاف شارك فيه أكثر من شخص.

رد عثمان بصوت منخفض لأن والدك كان يثق بالناس أكثر مما ينبغي ولأنني لم أكن شجاعاً بما يكفي لأعترف بكل ما حدث عندما كان الوقت مناسباً.

نهض يوسف ودفع ثمن قهوته ثم قال أحياناً لا يكون الصمت حماية لأحد بل تأجيلاً لوجع أكبر.

غادر المكان دون أن ينتظر جواباً.

وفي طريق عودته وصلته رسالة جديدة من الرقم المجهول لم يكن رشيد شريكاً في المال فقط بل كان يحتفظ بنسخة من الاتفاق ابحث عن النسخة قبل أن تبحث عن الرجل.

توقف يوسف عند الرصيف وقرأ الرسالة أكثر من مرة.

ثم أغلق هاتفه.

لقد قرر ألا يجعل من كل رسالة دليلاً ولا من كل مجهول شاهداً ولا من كل اعتراف حقيقة مكتملة فالحقيقة التي تستحق أن تُبنى عليها الأحكام لا بد أن تصمد أمام السؤال وأن تجد ما يؤيدها في الوثائق والشهادات.

عاد إلى البيت وأخرج رسالة والده والدفتر الأزرق ووضعهما جنباً إلى جنب.

للمرة الأولى لم يشعر أنه يطارد أشباح الماضي بل أنه يقترب من نهاية حكاية طال انتظارها.

كان يدرك أن العثور على الوثيقة قد يغيّر فهمه لما جرى لكنه لم يعد يخشى ما سيقرأه فيها فقد تعلّم أن الإنسان لا يتحرر من الحقيقة حين يعرفها فحسب بل حين يتوقف عن السماح لها بأن تسلبه ما تبقى من حياته.

فليس كل ما خفي مؤامرة وليس كل من أخطأ عدواً لكن العدل يبدأ حين يتوقف الجميع عن الاختباء خلف الصمت.

الفصل الرابع والثلاثون: الوثيقة الأخيرة

لم يكن يوسف يعرف من أين يبدأ البحث عن وثيقة لم يرها قط ولا كيف يصل إلى رجل انقطعت أخباره منذ سنوات لكنه كان يعرف شيئاً واحداً أن عليه هذه المرة أن يترك العاطفة جانباً وأن يتعامل مع الحكاية كما يتعامل المرء مع قضية يريد أن يفهمها لا مع جرح يريد أن ينتقم منه.

في صباح اليوم التالي اتصل بأخيه وأخبره بما قاله عثمان عن رشيد.

قال أخوه أتذكر أن أبي كان يحتفظ بملفات قديمة في خزانة مكتبه ربما نجد فيها شيئاً.

ذهبا معاً إلى البيت القديم وفتحا الخزانة التي لم يمسّها أحد منذ وفاة والدهما كانت الملفات مرتبة بعناية بعضها يحمل تواريخ قديمة وبعضها لم يتجاوز كونه أوراقاً متفرقة وفواتير لا قيمة لها.

قضيا ساعات في البحث حتى عثر الأخ على ظرف بنيّ كُتب عليه بخط والده "ملف الاتفاق – النسخة الثانية"

فتح يوسف الظرف بحذر فوجد داخله صوراً لوثائق مالية ومراسلات قصيرة ونسخة غير مكتملة من اتفاق قديم.

قرأ الصفحات واحدة تلو الأخرى ثم توقف عند ورقة تحمل توقيع والده وتوقيع عثمان وفي أسفلها إشارة إلى مبلغ مالي جرى تسليمه على دفعات.

لكن شيئاً لفت انتباهه فقد ورد اسم رشيد في هامش الورقة بخط مختلف عن بقية الكتابة تم استلام المبلغ عن طريق رشيد على أن تُسوّى الحسابات لاحقاً بين الأطراف.

نظر يوسف إلى أخيه وقال إذن لم يكن مجرد ممول عابر.

أجابه أخوه يبدو أنه كان حلقة أساسية في الاتفاق لكن هذه الورقة وحدها لا تكفي لمعرفة ما حدث بعد ذلك.

تابع يوسف تقليب الأوراق حتى وجد رسالة قصيرة من والده إلى رؤوف ، يطلب منه فيها الاحتفاظ بنسخة من الاتفاق، تحسباً لأي خلاف مستقبلي.

كان التاريخ سابقاً للخلاف الذي عرفه الجميع بسنوات.

قرأ يوسف الرسالة بصوت خافت

يا رؤوف لا أريد أن تضيع الحقوق بين الحسابات والكلام احتفظ بهذه النسخة فأنا لا أخشى ضياع المال بقدر ما أخشى أن يأتي يوم يُنسب إليّ ما لم أفعله أو أن أنسى أنا نفسي ما اتفقنا عليه.

ساد الصمت.

للمرة الأولى شعر يوسف أن والده لم يكن يخفي عنه مجرد خلاف مالي بل كان يعيش خوفاً من أن تتحول رواية الآخرين إلى حقيقة لا يستطيع الدفاع عن نفسه أمامها.

قال أخوه ربما كانت هذه هي الوثيقة التي كان يقصدها رؤوف.

أجاب يوسف ربما لكننا لا نملك النسخة التي احتفظ بها ولا نعرف إن كانت مطابقة لهذه الأوراق.

أخذ صور الوثائق ووضعها في ملف مستقل ثم قرر عرضها على مختص قانوني لفحصها وتحديد قيمتها وما يمكن إثباته من خلالها.

وفي المساء جلس وحده أمام نافذة غرفته وكان يفكر في عثمان وفي رشيد وفي رؤوف الذي رحل قبل أن يروي شهادته كاملة وفي أبيه الذي اختار الصمت حتى صار الصمت عبئاً على أبنائه.

رن هاتفه.

كانت رسالة من الرقم المجهول وصلت إلى نصف الطريق لا تبحث عن نسخة رؤوف عند رشيد فقد تركها لدى شخص من العائلة قبل سفره.

قرأ يوسف الرسالة ثم وضع الهاتف جانباً.

لم يعد يريد أن يركض خلف كل خيط يُلقى أمامه فقد أدرك أن المشكلة لم تكن في نقص الأسماء بل في كثرة الروايات وقلة الأدلة.

فتح دفتره وكتب قد نحتاج إلى سنوات لنفهم ما حدث لكننا لا نحتاج إلى سنوات أخرى لنقرر كيف نعيش فليس من العدل أن نورّث أبناءنا خصومات لم يصنعوها، ولا أن نترك لهم من الحكايات ما يجعلهم يشكون في كل من حولهم.

ثم أغلق الدفتر.

كان يعرف أن هناك نسخة أخرى من الاتفاق وأن شخصاً من العائلة يعرف مكانها لكنه قرر أن يكون بحثه الأخير هادئاً بعيداً عن الاتهامات والاندفاع فقد تعب من مطاردة الحقيقة لكنه لم يعد مستعداً للتخلي عنها.

إن أخطر ما يتركه الراحلون ليس ما لم يقولوه بل ما يتركونه من أسئلة يتكفل الأحياء بتوريثها لبعضهم.

الفصل الخامس والثلاثون: أمانة رؤوف

لم يكن يوسف يتوقع أن تقوده الأوراق القديمة إلى شخص من العائلة فقد ظلّ طوال الأيام الماضية يبحث عن رجل غريب اسمه رشيد وعن شاهد رحل اسمه رؤوف ولم يخطر بباله أن تكون الإجابة قريبة إلى هذا الحد.

عاد إلى العبارة التي وردت في الرسالة تركها لدى شخص من العائلة قبل سفره.

قرأها مرة أخرى ثم سأل أخاه من كان أقرب الناس إلى عبد القادر من عائلتنا؟

فكر أخوه قليلاً ثم قال عمّتنا فاطمة كانت تعرفه منذ سنوات وكانت بينهما علاقة احترام قديمة وأذكر أنه كان يزورها أحياناً قبل مرضه.

لم يتردد يوسف اتصل بها وشرح لها ما وجده دون أن يخفي عنها شيئاً حتى الرسالة المجهولة.

ساد الصمت على الطرف الآخر ثم جاء صوتها متردداً كنت أتمنى ألا تعودوا إلى هذه الحكاية فقد أخذت من أبيكم ما يكفي وأخشى أن تأخذ منكم أنتم أيضاً.

قال يوسف بهدوء لا نريد خصومة يا عمتي نريد فقط أن نفهم ما حدث.

تنهدت طويلاً ثم قالت تعال غداً لديّ شيء تركه رؤوف عندي منذ سنوات.

في اليوم التالي جلس يوسف وأخوه أمام عمّتهما في غرفة صغيرة تتوسطها خزانة خشبية قديمة نهضت ببطء وفتحت أحد أدراجها ثم أخرجت ظرفاً أبيض اصفرّت أطرافه بفعل الزمن.

قالت جاءني رؤوف قبل سفره الأخير وطلب مني الاحتفاظ بهذا الظرف قال إنه أمانة لا ينبغي أن تضيع وإن أصحابها سيحتاجون إليها يوماً ما.

مدّت الظرف إلى يوسف.

لم يفتحه مباشرة بل ظل ينظر إليه لحظات كان يحمل اسم والده بخط واضح وتحت الاسم عبارة قصيرة "لا يُفتح إلا إذا اختلفت الروايات".

فتح الظرف فوجد داخله نسخة من الاتفاق القديم ومعها ورقة كتبها رؤوف بخط يده.

كانت النسخة أوضح من تلك التي عثروا عليها في خزانة والدهم وتضمنت تفصيلاً لم يظهر في الأوراق السابقة اسم رشيد بصفته شريكاً في التمويل مع تحديد المبالغ التي دفعها والأطراف التي تسلمتها.

أما الورقة المرفقة فكانت تحمل شهادة رؤوف أشهد أن الاتفاق الذي جمع والد يوسف بعثمان و رشيد لم يكن كما ظهر في بعض الأوراق اللاحقة فقد اتفق الثلاثة على تمويل مشروع

مشترك وتوزيع الأرباح والخسائر بحسب مساهمة كل طرف غير أن خلافاً وقع بعد تعثر المشروع واختلفوا في الحسابات والمبالغ المتبقية.

وقد حاولت الإصلاح بينهم وطلبت منهم مراجعة الدفاتر وإثبات ما لكل واحد وما عليه ولا أستطيع أن أقول إن طرفاً واحداً كان بريئاً من كل خطأ لكنني أعلم أن بعض الوثائق التي استُعملت لاحقاً لم تكن تعكس الاتفاق كاملاً.

أُكتب هذا حتى لا تتحول شهادتي بعد رحيلي إلى حكاية يرويها كل شخص على هواه.

توقف يوسف عند الجملة الأخيرة.

لم تكن الوثيقة صك براءة لوالده ولم تكن إدانة نهائية لعثمان أو رشيد لكنها أعادت إلى الحكاية توازنها المفقود وأثبتت أن ما جرى كان أعقد من رواية طرف واحد.

سأل أخاه هل كنت تعرف أن عمّتنا تحتفظ بهذا؟

أجاب بالنفي.

أما عمّتهما فقالت لم أرد إخفاء شيء عنكما لكن رؤوف أوصاني ألا أسلّمها لأحد ما دام النزاع قائماً فقد كان يخشى أن تُستعمل في خصومة جديدة بدلاً من أن تكون وسيلة لإنهائها.

أعاد يوسف قراءة الشهادة ثم طواها بعناية.

قال لقد تأخرنا كثيراً في معرفة هذا لكننا لن نستخدمه للانتقام من أحد.

نظرت إليه عمّته وقالت هذا ما كان يتمناه أبوك وما كان رؤوف يرجوه أيضاً.

في طريق العودة كان يوسف يحمل الملف بين يديه بينما كان أخوه يقود السيارة بصمت.

وبعد مسافة قال الأخ يبدو أن الحكاية انتهت.

أجابه يوسف انتهى جزء منها أما ما بقي في نفوس الناس فلن تحسمه الأوراق وحدها.

ثم أضاف لقد أخطأ أبي وأخطأ غيره وربما دفع بعضهم ثمناً لم يكن ينبغي أن يدفعه لكننا لن نكرر أخطاءهم ولن نحول اختلافاً قديماً إلى عداوة جديدة.

لأول مرة منذ بداية الرحلة لم يكن يوسف يبحث عن اسم جديد ولا ينتظر اتصالاً من رقم مجهول ولا يترقب اعترافاً آخر.

كان يحمل وثيقة وشهادة ورسائل تكفي لبدء مراجعة جادة لما حدث.

وكان ذلك كافياً ليشعر بأن الحقيقة لم تعد بعيدة كما كانت.

ليس من الحكمة أن نبحث عن بريء كامل في حكاية أخطأ فيها الجميع بل أن ننصف كل طرف بقدر ما تثبته الحقيقة لا بقدر ما تمليه علينا المحبة أو الكراهية.

الفصل السادس والثلاثون: حين تنصف الذاكرة أصحابها

عاد يوسف إلى منزله وفي يده نسخة من شهادة رؤوف لكنه شعر أن ما يحمله أثقل من مجرد أوراق قديمة كانت تلك الصفحات تختصر سنوات من الصمت وتكشف أن الحقيقة لم تكن غائبة تماماً بل كانت موزعة بين أشخاص اختار كل واحد منهم أن يحتفظ بجزء منها.

في المساء وضع الوثائق أمام أخيه وقال أتعرف ما يؤلمني أكثر من كل ما اكتشفناه؟

ماذا؟

أن أبي رحل وهو يعلم أن اسمه سيبقى موضع شك وأننا سنكبر ونحن نحاول فهم ما حدث بينما كان بإمكان كلمة صادقة أن تختصر علينا كل هذه السنوات.

أطرق أخوه رأسه ثم قال وربما كان يخشى أن يعترف بأخطائه فاختار الصمت ظناً منه أنه يحمي صورته أمامنا.

أجابه يوسف لكن الأبوة لا تعني أن يكون الأب بلا أخطاء فكنت سأحترمه أكثر لو أخبرنا بالحقيقة كما هي لا كما كان يتمنى أن نتذكرها.

لم يكن يوسف يريد أن يحاكم والده بعد موته فقد أدرك أن الإنسان قد يخطئ وهو يظن أنه يحسن التصرف وقد يصمت خوفاً من أن يخسر احترام من يحبهم غير أن النوايا الحسنة لا تمحو آثار القرارات الخاطئة.

في اليوم التالي اتصل بعثمان وطلب منه لقاءً أخيراً.

جاء عثمان في الموعد وجلس قبالته دون أن يتبادل معه كثيراً من المجاملات.

أخرج يوسف نسخة من شهادة رؤوف ووضعها أمامه.

هل تعرف هذه الوثيقة؟

نظر إليها عثمان طويلاً ثم قال نعم أعرف خط رؤوف.

لقد أثبت أن الاتفاق كان بين ثلاثة أطراف وأن بعض الأوراق اللاحقة لم تعكس ما اتفقتم عليه.

تنهد عثمان وقال لم أنكر وجود رشيد لكنني كنت أرى أن الخلاف بيني وبين والدك أكبر من أن يُختصر في ورقة.

وهل كنت تعلم أن اسم أبي استُعمل في وثائق لم يكن حاضراً عند تحريرها؟

تردد عثمان قبل أن يجيب كنت أعلم أن بعض الإجراءات تمت بطريقة لم تكن واضحة للجميع لكنني لم أكن أعرف أن الأمر سيصل إلى ما وصل إليه.

قال يوسف بحزم هادئ هذا الكلام لا يكفي فالوثائق ستُعرض على مختص وكل طرف سيتحمل ما يثبته الدليل فلن أطلب منك اعترافاً لا تستطيع إثباته ولن أقبل منك إنكاراً يتجاهل ما أمامنا.

ظل عثمان صامتاً ثم قال ربما تأخرت في قول ما كان ينبغي أن أقوله منذ سنوات.

أجابه يوسف التأخر لا يعيد ما ضاع لكنه قد يمنع ضياع المزيد.

انتهى اللقاء دون مصافحة طويلة أو وعود كبيرة فلم يكن يوسف ينتظر من عثمان أن يتحول فجأة إلى رجل آخر فقد تعلم أن الاعتذار لا يُقاس بجمال عباراته بل بما يتبعه من أفعال.

بعد أيام بدأ يوسف مراجعة الوثائق مع مختص قانوني وطلب منه فحص التواريخ والتوقيعات ومقارنة النسخ المتاحة دون أن يستبق النتائج.

وفي تلك الأثناء تلقى اتصالاً من نوميديا.

كان صوتها هادئاً لكنه يحمل شيئاً من التردد.

قالت سمعت أنك وصلت إلى بعض الحقيقة بشأن ما حدث قديماً.

وصلت إلى أجزاء منها وما زلت أراجع الباقي.

وهل تغيّر شيء في داخلك؟

فكر قليلاً ثم أجاب تغيّرت نظرتي إلى بعض الناس لكنني لم أعد أريد أن أقضي عمري في إعادة محاكمة الماضي.

قالت كنت أظن أنك ستشعر بالانتصار حين تظهر الحقيقة.

ابتسم يوسف بحزن لا ينتصر الإنسان دائماً حين تثبت براءته من اتهام أحياناً يكتشف فقط كم خسر وهو يحاول إقناع الآخرين بأنه لم يكن كما ظنوا.

سكتت نوميديا ثم قالت أتمنى لو أننا تحدثنا يومها بدل أن نصدق ما قيل لنا.

ربما كان حديث واحد سيغيّر أشياء كثيرة لكننا لا نستطيع أن نعيش عمرنا كله في الندم على الأحاديث التي لم تحدث.

انتهت المكالمة بهدوء.

لم يطلب منها العودة ولم تطلب منه أن ينسى فكان بينهما تاريخ لا تستطيع الكلمات محوه لكنهما للمرة الأولى تحدثا دون أن يحاولا تحميل أحدهما كامل مسؤولية الرحيل.

وفي تلك الليلة فتح يوسف دفتره وكتب حين تنصف الذاكرة أصحابها لا تعيد الموتى إلى الحياة ولا تعيد السنوات التي ضاعت لكنها تمنح كل إنسان مكانه الحقيقي في الحكاية فلا يبقى المخطئ بريئاً لمجرد أنه قريب ولا يصبح المظلوم منتصراً لمجرد أنه تألم.

لقد تعبت من البحث عن الحقيقة لكنني لم أندم على الوصول إليها فالندم الحقيقي أن نعيش أسرى رواية نعرف في أعماقنا أنها ناقصة.

أغلق الدفتر ونظر من النافذة إلى الشارع الهادئ.

كان يشعر أن شيئاً داخله قد تصالح أخيراً مع ما لا يستطيع تغييره.

فالحقيقة لا تعيد إلينا ما فقدناه لكنها تمنعنا من أن نظل نفقد أنفسنا ونحن نحاول استعادته.

الفصل السابع والثلاثون: الحساب الذي لم يُغلق

لم يكن يوسف يتوقع أن تكون أصعب لحظات رحلته بعد اكتشاف الوثائق بل بعد أن أصبح قادراً على فهم ما حدث.

فالمعرفة على عكس ما يعتقد كثيرون لا تمنح الإنسان الراحة دائماً أحياناً تضعه أمام مسؤولية اتخاذ موقف لم يعد يستطيع تأجيله.

كان التقرير الأولي الذي أعدّه المختص واضحاً في نقطة أساسية الوثائق المتوفرة تكشف وجود اتفاق بين ثلاثة أطراف لكنها لا تكفي وحدها لتحديد جميع الالتزامات المالية التي بقيت عالقة ولا لإثبات مسؤولية كل طرف عن الخلاف الذي أعقب المشروع.

وضع يوسف التقرير جانباً ثم قال لأخيه يبدو أننا وصلنا إلى ما يمكن إثباته أما ما لا يمكن إثباته فعلينا ألا نحوله إلى اتهامات.

أجابه أخوه وماذا عن حق أبي؟

سنطالب بما يثبته القانون لا بما تمليه علينا مشاعرنا.

كان ذلك أول قرار يتخذه يوسف دون أن يترك للغضب مكاناً في حساباته.

بعد أيام تلقى اتصالاً من عثمان.

قال الأخير أريد أن أراك فهناك أمر ينبغي أن تعرفه قبل أن تتخذ أي خطوة.

التقيا في مكتب صغير بعيداً عن المقهى الذي اعتادا الجلوس فيه.

بدا عثمان أكثر تعباً من المرات السابقة وربما أدرك أن الوقت لم يعد يسمح له بالمراوغة.

قال بعد تعثر المشروع بقيت مبالغ لم تُسوَّ وبعضها كان من نصيب والدك وبعضها الآخر كان من نصيب رشيد لم تكن الحسابات واضحة وكل واحد منا احتفظ بأوراق مختلفة.

سأله يوسف وهل حصل أبي على كامل مستحقاته؟

لا أستطيع أن أجزم بذلك فلقد دفع والدك جزءاً مما اعتبره التزاماً عليه لكنه ظل يعتقد أن هناك مبالغ لم تُحتسب بصورة صحيحة.

ولماذا لم تقل هذا منذ البداية؟

أجاب عثمان بصوت خافت لأن الاعتراف بأن الأمور لم تكن واضحة يعني الاعتراف بأنني ساهمت في تعقيدها فكنت أخشى أن أتحمل وحدي مسؤولية خلاف لم أكن طرفه الوحيد.

نظر إليه يوسف طويلاً ثم قال لم أطلب منك أن تتحمل مسؤولية الجميع طلبت منك فقط ألا تتنصل من مسؤوليتك.

أخرج عثمان ورقة قديمة من حقيبته ووضعها أمامه.

كانت عبارة عن كشف حساب غير مكتمل يحمل بعض المبالغ والتواريخ وفي أسفله ملاحظة بخط اليد تشير إلى مبلغ بقي محل خلاف بين الأطراف.

قال عثمان هذه آخر نسخة احتفظت بها ولا أعرف إن كانت ستفيدك لكنها قد تساعد في إعادة ترتيب الحسابات.

أخذ يوسف الورقة ثم قال سأضيفها إلى الملف وسيتم فحصها مثل بقية الوثائق.

لم يشكره ولم يوبخه فقد أدرك أن الكلمات لم تعد كافية وأن الوقت قد حان ليترك للأدلة أن تتحدث.

في طريق عودته اتصل به أخوه ليسأله عن اللقاء.

أخبره بما حدث ثم أضاف أتعرف؟ كنت أظن أن نهاية هذه الحكاية ستكون اعترافاً كبيراً أو انكشاف شخص واحد مسؤول عن كل شيء لكنني اكتشفت أن الحقيقة أقل درامية من تصوراتنا وأكثر إيلاماً أحياناً.

قال أخوه لأننا كنا نبحث عن مذنب واحد.

نعم بينما كانت الأخطاء موزعة بين الثقة الزائدة والصمت وسوء التقدير والمصلحة وربما كان أكبر خطأ ارتكبناه نحن الأبناء أننا ورثنا الخلاف قبل أن نعرف تفاصيله.

ساد الصمت بينهما قليلاً.

ثم قال يوسف أريد أن ينتهي هذا الملف دون أن يتحول إلى إرث جديد في عائلتنا.

في المساء عاد إلى غرفته وفتح دفتره و كتب هناك حسابات لا تُغلق بالمال وحده لأن ما يتراكم حولها من سوء ظن وقطيعة وذكريات موجعة يكون أحياناً أكبر من أصل الخلاف وقد يأتي يوم يستعيد فيه الإنسان حقه لكنه لا يستطيع استعادة السنوات التي قضاها في الشك ولا العلاقات التي أفسدتها روايات لم يتحقق أحد من صدقها لذلك لا ينبغي أن نترك خلافاتنا مفتوحة حتى يرثها أبناؤنا ولا أن نجعل من الكرامة ذريعة للعناد أو من التسامح ستاراً لضياع الحقوق فالعدل لا يناقض التسامح والاعتراف بالخطأ لا ينتقص من قدر صاحبه.

أغلق الدفتر وأعاد الأوراق إلى الملف.

لم يكن الحساب قد أُغلق قانونياً بعد لكنه كان قد أغلق باباً آخر في داخله باب الانتقام الذي ظل مفتوحاً لسنوات.

ليس كل من يطلب حقه يبحث عن خصومة وليس كل من يختار التسامح يتنازل عن كرامته فالحكمة أن نعرف متى نتمسك بحقوقنا ومتى نحرر أرواحنا من أثقالها.

الفصل الثامن والثلاثون: الحياة لا تنتظر أحداً

كانت الأيام تمضي ويوسف يكتشف شيئاً لم ينتبه إليه طوال انشغاله بالماضي أن الحياة لم تتوقف يوماً بانتظاره.

كان يظن أن عليه أن يفهم كل شيء قبل أن يبدأ من جديد وأن يعرف دوافع كل من خذله وأن يسمع اعتذاراً من كل من أساء إليه وأن يستعيد كل ما فقده حتى يشعر بالسلام.

لكنه أدرك متأخراً أن بعض الأسئلة قد تبقى بلا إجابة وأن بعض الأشخاص لن يعتذروا مهما طال الانتظار وأن هناك أبواباً لا ينبغي طرقها مرة أخرى حتى لو بقي خلفها شيء من الذكريات.

في صباح هادئ خرج إلى الشارع دون وجهة محددة اشترى قهوته من المحل الذي اعتاد المرور به وجلس قرب النافذة يتأمل الناس.

رأى رجلاً مسناً يمسك بيد حفيده وامرأة تسرع للحاق بالحافلة وشاباً يتحدث في الهاتف ويضحك من قلبه.

كانت الحياة بسيطة في أعينهم بينما كان هو قد جعلها طوال سنوات قضية معقدة تحتاج إلى أدلة وشهود واعترافات.

ابتسم لنفسه وقال كم من العمر نضيّع ونحن نحاول فهم ما حدث حتى ننسى أن نصنع شيئاً يستحق أن يحدث!

في ذلك اليوم قرر زيارة مكان عمله القديم.

لم يكن المكان قد تغير كثيراً لكن الوجوه التي عرفها اختفى معظمها وحلّت محلها وجوه جديدة لا تعرف شيئاً عن حكايته.

استقبله زميل قديم بحرارة وجلسا يتبادلان أخبار السنوات الماضية.

قال الرجل لقد تغيرت يا يوسف كنت أكثر انشغالاً بالناس أما اليوم فأراك أكثر هدوءاً.

أجابه يوسف ربما لم أتغير كثيراً ربما فقط توقفت عن انتظار أن يكون الجميع كما أريدهم أن يكونوا.

ضحك زميله وقال هذه حكمة لا يصل إليها الإنسان بسهولة.

رد يوسف بل يصل إليها بعد أن يدفع ثمن الجهل بها.

غادر المكان وهو يشعر أن العودة إلى الحياة لا تحتاج دائماً إلى قرارات كبيرة أحياناً تبدأ بخطوة صغيرة نحو الأشياء التي أهملناها طويلاً.

في المساء تلقى رسالة من نوميديا أتمنى أن تكون بخير فكرت كثيراً في حديثنا الأخير وأدركت أن بعض القرارات التي اتخذتها لم تكن عادلة وأنني سمحت للآخرين بأن يؤثروا في حكمي عليك دون أن أمنحك فرصة كافية لتشرح موقفك.

قرأ الرسالة بهدوء و لم يشعر بالغضب الذي كان يتوقعه، ولم يشعر بالفرح الذي تخيله يوماً حين ينتظر اعترافها.

كتب لها أتمنى لك الخير يا نوميديا لقد كان بيننا ما يستحق أن يُحفظ لكن ما حدث علّمنا أن المشاعر وحدها لا تكفي حين يغيب الحوار والثقة لا أحمل لك عداوة ولا أريد أن نجعل من الماضي سجناً جديداً.

أرسل الرسالة ثم وضع هاتفه جانباً.

لم يكن ذلك رفضاً لها ولا دعوة إلى العودة بل كان اعترافاً بأن لكل مرحلة من الحياة وقتها وأن بعض العلاقات قد تحتفظ بمكانتها في الذاكرة دون أن تستعيد مكانها في الواقع.

في الأيام التالية بدأ يوسف يستعيد عاداته القديمة.

عاد إلى القراءة وكتب صفحات جديدة في دفتره واهتم بعمله.

أما الملف القديم فقد تركه يسير في مساره القانوني دون أن يسمح له بالاستيلاء على كل تفكيره.

وفي إحدى الليالي جلس مع أخيه يتحدثان عن والدهما.

قال الأخ أحياناً أشعر أننا لم نعرف أبانا كما ينبغي.

أجابه يوسف لا أحد يعرف إنساناً معرفة كاملة حتى أقرب الناس إليه فكنا نرى منه جانب الأب وربما كانت له جوانب أخرى لم نعرفها فالمهم ألا نجعل أخطاءه تلغي ما قدمه لنا ولا أن نجعل محبتنا له تمنعنا من الاعتراف بأخطائه.

قال أخوه أتظن أننا سننسى كل ما حدث؟

ابتسم يوسف لا أريد أن ننسى أريد فقط ألا نظل نعيش داخله.

وقبل أن ينام فتح دفتره وكتب الحياة لا تنتظر حتى ننتهي من الحزن ولا تؤجل أفراحها حتى نتصالح مع الماضي إنها تمضي ونحن نملك إما أن نمضي معها أو نظل واقفين عند أبواب أُغلقت منذ زمن.

ليس من الضروري أن ننسى كل من خذلنا ولا أن نعيد الثقة إلى من كسرها لكن من الضروري ألا نسمح لأخطائهم بأن تحرمنا من فرصة عيش ما تبقى من أعمارنا فالعمر أقصر من أن نقضيه في انتظار اعتذار وأثمن من أن نهبه لمن لم يعرفوا قيمته.

أغلق الدفتر وأطفأ الضوء.

وللمرة الأولى منذ زمن طويل نام يوسف دون أن يستعيد في ذهنه أسماء الذين خذلوه أو يتخيل حواراً لم يحدث أو يبحث عن جواب لسؤال قديم.

لقد فهم أخيراً أن النجاة ليست في أن ننتصر على الماضي بل في أن نتوقف عن منحه سلطة التحكم في مستقبلنا.

فلا تجعل من انتظار ما فات سبباً في ضياع ما هو آتٍ فالحياة التي تؤجلها اليوم قد لا تمنحك فرصة أخرى غداً.

الفصل التاسع والثلاثون: ما الذي يبقى منا؟

مرت أسابيع منذ أن قرر يوسف أن يترك الماضي يأخذ مكانه الطبيعي في ذاكرته لا في تفاصيل يومه ولم تعد الأوراق القديمة تشغل تفكيره كما كانت وإن ظل ينتظر ما ستسفر عنه المراجعة القانونية.

كان يشعر أن شيئاً ما قد تبدّل فيه لم يعد يندفع خلف كل كلمة ولم يعد يظن أن عليه الرد على كل إساءة ولم تعد خسارة بعض الأشخاص تبدو له نهاية العالم لكنه كان يتساءل أحياناً ما الذي يبقى من الإنسان بعد كل ما يمر به؟

هل تبقى صورته في أذهان الذين عرفوه؟ أم كلماته التي قالها في لحظات الصدق؟ أم المواقف التي اتخذها حين كان قادراً على الاختيار بين مصلحته ومبادئه؟

في أحد الأيام زار قبر والده وقف أمامه طويلاً ثم جلس بالقرب منه مستعيداً ملامحه وصوته وبعض التفاصيل الصغيرة التي لم يكن يظن يوماً أنها ستصبح بهذه القيمة.

قال بصوت خافت أبي لم أعد أبحث عن أبرياء ومذنبين كما كنت أفعل لقد فهمت أن الإنسان أكبر من خطئه لكنه مسؤول عنه أيضاً وتمنيت لو أنك تحدثت إلينا أكثر ولو أنك منحتنا فرصة معرفة الحقيقة قبل أن تصبح جزءاً من إرثنا.

سكت قليلاً ثم أضاف لن أحمل عداواتك ولن أنكر أخطاءك سأحتفظ بما كان جميلاً فيك وأتعلم مما لم يكن كذلك.

نهض بعد ذلك ومسح الغبار عن حافة القبر وغادر بهدوء.

كان يعلم أن الموتى لا يسمعون اعتذاراتنا لكن الأحياء يحتاجون أحياناً إلى قول ما عجزوا عن قوله في الوقت المناسب.

في طريق عودته تلقى اتصالاً من المحامي عبد الله الذي يتابع ملف الوثائق.

أخبره أن مراجعة المستندات أكدت وجود اختلافات بين النسخ المتداولة وأن هناك مسائل مالية تحتاج إلى مزيد من التدقيق لكن لا يمكن الجزم بمسؤولية طرف بعينه دون استكمال الإجراءات والأدلة.

استمع يوسف حتى النهاية ثم قال أريد أن تسير الأمور وفق القانون مهما كانت النتيجة فلم أعد أبحث عن انتصار شخصي بل عن إنصاف لا يظلم أحداً.

أنهى المكالمة وشعر براحة لم يكن يعرف سببها تماماً.

ربما لأنه أدرك أن بعض المعارك لا تنتهي حين نحصل على كل ما نريد بل حين نتوقف عن السماح لها بتحديد من نكون.

وفي المساء التقى كمال مصادفة.

كان اللقاء عابراً في بدايته لكن كمال طلب منه الجلوس قليلاً.

قال كمال أفكر كثيراً فيما حدث بيننا فلم أكن أتصور أن كلماتي ستترك كل هذا الأثر.

نظر إليه يوسف وقال المشكلة ليست دائماً في الكلمات التي نقولها بل في النوايا التي نحملها حين نقولها وفي استعدادنا لتحمل نتائجها.

أعلم أنني أخطأت وأنا لا أنكر أنك كنت صديقاً في أيام كثيرة لكن ذلك لا يمحو ما فعلته في أيام أخرى.

خفض كمال رأسه.

هل يمكن أن تعود الأمور كما كانت؟

أجابه يوسف بهدوء لا أظن أن الحياة تعيد الأشياء كما كانت ولا أعتقد أن علينا أن نطلب منها ذلك فيمكننا أن نتصالح مع ما حدث وأن نتعامل باحترام أما الثقة فلها طريق آخر ولا تُبنى بقرار واحد.

لم يطلب كمال أكثر من ذلك.

افترقا وكل واحد منهما يحمل فهماً مختلفاً للصداقة كمال أدرك أن بعض الأخطاء لا تُصلحها الاعتذارات وحدها ويوسف أدرك أن التسامح لا يعني إعادة الناس إلى الأماكن التي غادروها.

عاد يوسف إلى منزله وفتح دفتره الذي رافقه طوال هذه الرحلة.

كتب ما الذي يبقى منا حين تنتهي الحكايات؟ لا تبقى الوعود التي قطعناها ثم نسيناها ولا الكلمات التي قلناها لنبدو أفضل مما نحن عليه ولا المناصب التي ظننا أنها ستمنحنا قيمة لا تزول.

يبقى أثرنا في النفوس وما تركناه من عدل أو ظلم ومن رحمة أو قسوة ومن صدق أو خذلان وقد ينسى الناس تفاصيل كثيرة من حياتنا لكنهم لن ينسوا كيف جعلناهم يشعرون حين كانوا في أمسّ الحاجة إلى إنسان يفهمهم لذلك لا تنشغل كثيراً بما سيقوله الناس عنك بعد رحيلك بل انشغل بما تفعله بهم وأنت حاضر بينهم.

توقف عن الكتابة وتأمل الصفحة.

لقد بدأ هذه الرحلة باحثاً عن الحقيقة في حياة الآخرين وانتهى به الأمر إلى اكتشاف أشياء كثيرة عن نفسه.

فهم أن الخيبة لا تجعل الإنسان حكيماً بالضرورة وأن الألم لا يمنحه الحق في إيذاء غيره وأن معرفة الحقيقة لا تعني أن يصبح قاسياً بل أن يصبح أكثر عدلاً.

قد لا نملك أن نختار كل ما يحدث لنا لكننا نملك أن نختار الأثر الذي نتركه بعد كل ما حدث.

الفصل الأربعون: حين تتصالح الروح مع الحياة

لم يكن التصالح مع الحياة قراراً اتخذه يوسف في ليلة واحدة ولم يكن لحظة عابرة شعر فيها بأن كل شيء أصبح على ما يرام.

كان الأمر أشبه بعودة بطيئة إلى نفسه أن يستيقظ دون أن يبحث عن سبب جديد للحزن وأن يتذكر دون أن يتألم بالقدر نفسه وأن يمر بالأماكن التي شهدت خيباته دون أن يشعر بأنه مطالب باستعادة كل تفاصيلها.

لقد اكتشف أن الإنسان قد يقضي سنوات في محاولة إصلاح ما أفسده الآخرون حتى ينسى أن له حياة تستحق أن تُعاش بعيداً عن أخطائهم.

وفي صباح أحد الأيام قرر أن يزور البحر.

لم يكن قد ذهب إليه منذ مدة طويلة جلس على مقعد قريب من الشاطئ يراقب الأمواج وهي تتقدم نحو الرمل ثم تتراجع وكأنها تعيد المحاولة دون أن تشكو من تكرار الطريق.

تأمل المشهد وقال في نفسه كم يشبه الإنسان البحر أحياناً يخفي في أعماقه ما لا تستطيع العيون رؤيته ويستقبل كل يوم أمواجاً جديدة ومع ذلك يظل واقفاً في مكانه.

رن هاتفه وكانت نوميديا.

تردد قليلاً قبل أن يجيب.

مرحباً يا نوميديا.

كيف حالك يا يوسف؟

بخير وأنت؟

أحاول أن أكون بخير.

تحدثا عن أمور عادية عن الأيام التي مضت وعن أشخاص عرفوهما وعن تفاصيل صغيرة لم تكن تحمل أي رغبة في إعادة فتح الماضي.

ثم قالت نوميديا هل تعتقد أننا أضعنا شيئاً جميلاً؟

نظر يوسف إلى البحر وأجاب ربما أضعنا فرصة كان يمكن أن تكون جميلة لكنني تعلمت أن ما لم يكتمل ليس بالضرورة فشلاً وأن بعض النهايات تأتي لتخبرنا بأن طريقاً آخر ينتظرنا.

قالت وهل سامحتني؟

لم أعد أعيش على فكرة المسامحة أو عدمها فلا أتمنى لك إلا الخير أما ما كان بيننا فقد أصبح جزءاً من حياتي.

ساد الصمت للحظات.

ثم قالت نوميديا أتمنى أن تجد السعادة التي تستحقها.

ابتسم يوسف وقال أتمنى أن نجد جميعاً السلام الذي طالما بحثنا عنه لعلنا نلتقي قريبا في ظروف أجمل و بأشخاص لم يكونوا يوما سببا في سوء علاقاتنا فنكتشف أن ما أفسدته الظروف و الآخرون كان يمكن أن يصلحه لقاء صادق و نوايا صافية.

انتهت المكالمة وعاد إلى مراقبة البحر.

لم يشعر بأنه خسر شيئاً هذه المرة فقد أصبح قادراً على توديع الأشياء دون أن يشعر بأنه يودع جزءاً من نفسه معها.

عاد إلى البيت عند الغروب فوجد أخاه ينتظره.

قال له وصلتنا أخبار جديدة بشأن الملف القديم.

نظر يوسف إليه باهتمام فأكمل

ـ هناك إمكانية لتسوية بعض الجوانب المالية بين الأطراف لكن الأمر سيحتاج إلى إجراءات واتفاق واضح.

جلس يوسف وقال إذا كان هناك حق ثابت فليُردّ إلى أصحابه وإذا كانت هناك التزامات ثابتة فعلينا أن نتحملها فلا أريد أن يبقى هذا الملف مفتوحاً حتى يصبح حكاية جديدة يختلف عليها أبناؤنا.

ابتسم أخوه وقال يبدو أنك لم تعد الشخص الذي بدأ هذه الرحلة.

أجابه يوسف ربما كنت أبحث في البداية عن الحقيقة لأثبت أنني لم أكن مخطئاً ثم اكتشفت أن الأهم هو ألا أسمح لأخطاء الآخرين بأن تجعلني مخطئاً في حق نفسي وفي حق غيري.

في تلك الليلة أخرج يوسف دفتراً جديداً وكتب في صفحته الأولى

إلى كل الذين أتعبتهم الحقيقة...

إلى الذين صدقوا فخذلوا وأحبوا فرحلوا وصبروا حتى نفد صبرهم وإلى الذين حملوا أسئلة لم يجدوا لها أجوبة.

لا تجعلوا خيباتكم حكماً نهائياً على الحياة ولا تسمحوا لتجربة قاسية أن تقنعكم بأن الخير قد اختفى من هذا العالم.

ليس كل الناس نسخة ممن خذلوكم وليس كل الأبواب المغلقة نهاية الطريق وليس كل ما فقدتموه كان يستحق أن تفقدوا أنفسكم من أجله.

تعلموا من الألم لكن لا تتخذوه وطناً.

سامحوا حين تستطيعون وابتعدوا حين يصبح البقاء إهانة لكرامتكم واطلبوا حقوقكم دون أن تتحولوا إلى نسخ ممن ظلموكم.

فالحياة لا تمنحنا دائماً ما نريد لكنها تترك لنا فرصة أن نصبح أفضل مما كنا.

وضع القلم جانباً وأغلق الدفتر.

ثم نظر إلى صورته في المرآة وكأنه يلتقي للمرة الأولى بذلك الرجل الذي أنهكته الأسئلة وأتعبته الخيبات وأرهقه البحث عن الإنصاف.

ابتسم له.

لم يكن قد حصل على كل الإجابات ولم يستعد كل ما فقده ولم تتحول جميع الوجوه التي خذلته إلى وجوه صادقة.

لكنه استعاد شيئاً أهم من ذلك كله استعاد قدرته على أن يعيش.

فليس النضج أن تعرف لماذا خذلك الجميع بل أن تتعلم كيف تواصل الحياة دون أن تفقد إيمانك بالخير.

الفصل الحادي والأربعون والأخير: حين تنضج الخيبات

لم يكن يوسف يعلم أن رحلته ستنتهي بهذه البساطة كان يظن أن النهاية ستكون مشهداً كبيراً يجتمع فيه كل الذين خذلوه ويعترف كل واحد منهم بما فعل ثم يسمع منهم الكلمات التي انتظرها طويلاً.

لكنه اكتشف أن الحياة لا تكتب نهاياتها وفق أمنياتنا وأن بعض الحكايات لا تحتاج إلى اجتماع أصحابها حتى تنتهي بل يكفي أن يتصالح أحدهم مع نفسه ليضع النقطة الأخيرة.

مرت شهور منذ أن بدأ البحث في حكاية والده وسارت الإجراءات في طريقها وظهرت بعض الحقائق التي ساعدت على توضيح الحسابات القديمة وانتهى الأمر إلى تسوية ما أمكن تسويته وفق ما ثبت من حقوق والتزامات.

لم يحصل يوسف على كل ما كان يتمنى لكنه لم يعد يرى في ذلك هزيمة.

أما عثمان فقد بقيت العلاقة بينهما في حدود الاحترام دون أن تعود كما كانت وكمال أدرك أن الاعتذار لا يعيد الثقة بمجرد النطق به و نوميديا مضت في طريقها بينما اختار يوسف ألا يجعل من ذكراها سبباً لتأجيل مستقبله.

لقد أخذ كل واحد منهم مكانه في ذاكرته دون أن يسمح لأحدهم بأن يحتل حياته كلها.

في مساء هادئ عاد يوسف إلى الدفتر القديم الذي رافقه طوال رحلته.

قلب صفحاته فوجد بين السطور رجلاً آخر رجلاً كان يكتب بغضب ويتساءل بحيرة ويبحث عن إجابات لا تنتهي.

ابتسم وهو يقرأ بعض العبارات التي كتبها في أشد لحظات ضعفه.

ثم فتح صفحة بيضاء وكتب لم تكن الخيبات نهاية الطريق وإن بدت لنا كذلك في لحظاتها الأولى فلقد خذلنا أشخاص ظننا أنهم لن يتغيروا ورحل عنا من حسبنا أن بقاءهم قدر لا يتبدل واكتشفنا أن بعض الحقائق كانت قريبة منا لكننا لم نكن مستعدين لرؤيتها.

كبرنا لا لأن الأيام مضت فحسب بل لأننا دفعنا من أرواحنا ثمناً لكل درس لم نتعلمه في الوقت المناسب.

تعلمنا أن الثقة لا تعني إلغاء الحذر وأن المحبة لا تبرر الظلم وأن القرابة لا تمنح أحداً حصانة من الخطأ وأن الصداقة التي لا تحتمل الصراحة ليست صداقة ناضجة.

وتعلمنا أيضاً أن الإنسان قد يكون مخطئاً ومظلوماً في الوقت نفسه وأن الاعتراف بالخطأ لا يسلبه حقه كما أن التعرض للظلم لا يمنحه الحق في ظلم الآخرين.

أما الحقيقة فقد كانت أكثر قسوة مما تخيلنا لكنها كانت أرحم من العيش طويلاً في الوهم.

توقف قليلاً ثم أضاف:

وحين تنضج الخيبات لا نعود نبحث عن الذين خذلونا لنعيد عتابهم ولا ننتظر من غادروا أن يعودوا ليشرحوا أسباب رحيلهم.

نكتفي بأن نفهم ونتعلم ونمضي.

فليس كل ما ينكسر يستحق أن نعيد ترميمه وليس كل ما نفقده خسارة وليس كل من غادر حياتنا ترك فيها فراغاً ينبغي أن نملأه.

ثمة خيبات تأتي لتكشف لنا حقيقة الآخرين وخيبات أخرى تأتي لتكشف لنا حقيقة أنفسنا وأصعبها تلك التي تجعلنا نكتشف أننا منحنا بعض الناس أكثر مما يستحقون وأهملنا أنفسنا أكثر مما ينبغي.

أغلق يوسف الدفتر ووضعه في مكتبته إلى جانب الكتب التي أحبها.

ثم خرج إلى الشرفة.

كانت المدينة تمضي في ليلها المعتاد أضواء البيوت تتلألأ وأصوات المارة تتداخل والحياة تستمر دون أن تسأل أحداً عن جراحه القديمة.

تأمل السماء طويلاً ثم تذكر والده ونوميديا و كمال وكل الذين مروا في حكايته لم يدعُ لهم بالعودة ولم يتمنَّ لهم السوء.

اكتفى بأن يتمنى لو أن الجميع تعلموا باكراً ما تعلمه هو متأخراً بأن الصدق لا يكلفنا بقدر ما يكلفنا الكذب وأن كلمة واحدة في وقتها قد تنقذ علاقة من سنوات الندم وأن الصمت حين يكون واجباً في نظر صاحبه قد يصبح ظلماً في حياة الآخرين.

ثم عاد إلى الداخل وأطفأ الضوء.

لم تعد لديه رغبة في مطاردة الماضي ولا حاجة إلى إثبات شيء لأحد كان قد تعب من الحقيقة لكنه لم يعد يخشاها.

وهكذا فهم يوسف أن بعض الخيبات لا تأتي لتحطمنا بل لتنضج فينا أشياء لم تكن لتولد لولا الألم وأن أقسى ما نتعلمه متأخرين قد يكون أجمل ما نحمله معنا إلى بقية العمر.

تمّت الرواية

الذين أتعبتهم الحقيقة

تأليف: شراك يوسف

ليست كل الخيبات انكساراً ولا كل النهايات خسارة فثمة أوجاع تصنع وعينا وثمة حقائق وإن أتعبتنا تعلّمنا كيف نعيش.

الفهرس

الإهداء 01

المقدمة 02

الفصل الأول: حين بدأ كل شيء يتغير 03

الفصل الثاني: الذين نمنحهم أكثر مما يستحقون..... 05

الفصل الثالث: عودة الماضي 06

الفصل الرابع: صديق أم شاهد على الخذلان؟ 11

الفصل الخامس: الوجه الآخر للصداقة 14

الفصل السادس: موعد مع الحقيقة 17

الفصل السابع: حين يأتي الخذلان من البيت 21

الفصل الثامن: الاعتذار الذي لا يعيد شيئاً 24

الفصل التاسع: الرجل الذي كان يعرف كل شيء 26

الفصل العاشر: سرّ لم يكن ينبغي أن يُدفن 29

الفصل الحادي عشر: الأب الذي لم يتكلم 32

الفصل الثاني عشر: حين يصبح اسمك دليلاً ضدك 36

الفصل الثالث عشر: الرجل الذي لا يظهر في الصورة 39

الفصل الرابع عشر: ذاكرة لا تخون 41
الفصل الخامس عشر: اعتراف تحت الضغط 44
الفصل السادس عشر: ما لا تقوله الاعتذارات 47
الفصل السابع عشر: حين يصبح الصمت موقفاً 48
الفصل الثامن عشر: عثمان بلا أقنعة 51
الفصل التاسع عشر: المرأة التي اختارت الرحيل 53
الفصل العشرون: الذين لا ينتصرون رغم معرفة الحقيقة 55
الفصل الحادي والعشرون: النصف الآخر 57
الفصل الثاني والعشرون: رسالة من رجل رحل 58
الفصل الثالث والعشرون: حين يتكلم الأخ أخيراً 62
الفصل الرابع والعشرون: ما تبقّى من نوميديا 66
الفصل الخامس والعشرون: من أشعل الحكاية؟ 70
الفصل السادس والعشرون: الاسم الأخير في الدفتر 76
الفصل السابع والعشرون: اعتراف كمال الأخير 81
الفصل الثامن والعشرون: حين يتوقف المرء عن الانتظار 86
الفصل التاسع والعشرون: الحياة التي لم ينتبه إليها 89

الفصل الثلاثون: القرار الأخير 93
الفصل الحادي والثلاثون: ما بعد الحقيقة 98
الفصل الثاني والثلاثون: الشاهد الذي رحل 102
الفصل الثالث والثلاثون: الشريك الخفي 108
الفصل الرابع والثلاثون: الوثيقة الأخيرة 112
الفصل الخامس والثلاثون: أمانة رؤوف 115
الفصل السادس والثلاثون: حين تنصف الذاكرة أصحابها 118
الفصل السابع والثلاثون: الحساب الذي لم يُغلق 121
الفصل الثامن والثلاثون: الحياة لا تنتظر أحداً 124
الفصل التاسع والثلاثون: ما الذي يبقى منا؟ 129
الفصل الأربعون: حين تتصالح الروح مع الحياة 131
الفصل الحادي والأربعون والأخير: حين تنضج الخيبات 135

ليست كل الخيبات انكساراً
ولا كل النهايات خسارة
فثمة أوجاع تصنع وعينا
وثمة حقائق وإن أتعبتنا
تعلمنا كيف نعيش.



youssoufcv333@gmail.com